على مائدة الثقافة الإسلامية

تأليف

الشيخ عبد الحميد كشك

على مائدة الثقافة الاسلامية

الحمد لله رب العالمين . خلق فسوى وقدر فهدى . تنزه عن الشريك ذاته وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته . بالبر معروف وبالإحسان موصوف . معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية . وأشهد أن لاإله إلا الله . يحيى العظام وهى رميم . وله ماسكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . عنت الوجوه لعظم ملكوته . وخشعت الأصوات لجلال جبروته . هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين . وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمدا رسول الله . أكمل الله به الدين وأتم به النعمه ورضى لنا الإسلام دينا . وإذا كان الله قد أكمل دينه فدينه لاينقص أبدا . وإذا كان قد أتم النعمة . فنعمة الله ليس بعدها نعمة وإذا كان قد رضى لنا الإسلام دينا ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

صلت عليك ملا ئك الرحمن — وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت على الوجود مزوداً — بحمى الإله وراية القرآن

صلى عليك الله ياعلم الهدى ماهبت النسائم وماناحت على الأيك الحمائم . أما بعد فياحماة الإسلام وياحراس العقيدة : فهذا كتاب اشتمل على فنون من المختارات الإسلامية .تلمح فى هذا الكتاب روح العقيدة وتنشق فيه نسمات العبادة ، وتشم منه أريج السلوك .

فإذا ماقرأته وعملت بما فيه خلت نفسك فى روضة دانية القطوف

باسقة الأغصان طيبة الجنى . « ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . . « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولاتولوا عنه وأنتم تسمعون . ولاتكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون » .

نعم ياربنا . سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

إن فى الاستجابة لك ولرسولك حياة للموات ونورا يبدد غياهب الظلمات . فأنت القائل وقولك الحق ؛ « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان . ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » .

إن فى الاستجابة لك ولرسولك طاعة . وجزاء الطاعة الرضا والجنة : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » .

فيا أيها المسلم :

أقبل على النفس واستكمل فضائلها   فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته   أتطلب الربح مما فيه خسران
امدد يديك بحبل الله معتصما   فإنه الركن إن خانتك أركان

أسألك اللهم أن تبارك هذا العمل وأن تجعله خالصا لوجهك الكريم وتنفع به فأنت المستعان وعليك التكلان ، وصلى الله وسلم على خير الأنام .

الغني في القناعة (١)

صدق الله العظيم إذ يقول : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا جهنم يصلاها مذموما مدحورا ٠ ومن أراد الآخره وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ٠ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محذورا ٠ انظركيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا . .

عندما نطالع آيات الله ، ونصافح كلماته فى كتابه ونتعبد بتلاوته نطالع دروسا ونفوسا ٠ نعم : ما أجمل القرآن إذا عرض الدروس على النفوس واستخلص العواقب واستنتج العبر ، إن الكلام الوحيد الذى نلتمس فيه الحكمة البالغة والعبرة النافذة التى لا تجد لها تفسيرا أعظم من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمع إلى قوله صلوات الله وسلامه عليه فى هذا المجال الذى نحن بصدده « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » ٠ وأمامنا فى هذا المجال عدة مواقف فى القرآن الكريم نتبين منها عبرة الحياة ونستخلص فيها نتائج الدنيا إذا اخترقت مجال اليدين إلى مجال القلب وتربعت فيه ، هنا تكون الهاوية وما أدراك ما هى نار حامية ٠

۞ الدرس الأول :

ماذكره القرآن الكريم عن هذا الحبر الكبير الذى عرف فى بنى

اسرئيل بعلمه الغزير ، والذى قضى أيامه ولياليه بجوار كليم الله موسى حتى جاء اليوم الذى أرسله فيه نبى الله موسى مبعوثا ليبلغ أمر الله إلى أهل مدين ، وذهب إليهم بقلب نقى تقى ، ووعظهم واستمعوا له بآذانهم ؛ ولسان قلوبهم يقول : سمعنا وعصينا ، بدلا من أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وواصل الحبر مواعظه وإرشاداته وواصلوه هم خداعه وإغراء ه بالمادة وعرض زينة الحياة الدنيا عليه حتى سألوه يوما : كم يعطيك موسى لقاء ما تبذل من جهد فى تبليغ هذه الرسالة . قال لهم : إنما أقصد الأجر من الله . قالوا : فإن أموالنا كثيرة ولن نبخل بها عنك فى سبيل ألا نسمع منك شيئا حتى لا تفسد علينا بيعنا وشراء نا ... وفكر العالم كثيرا تردى فى صراع عنيف حتى وصل مجال انعدام الوزن عندما سأل نفسه : موسى أم المال ؟ الله أم الشيطان ؛ الدنيا أم الآخرة ؟ وأخيرا .. هداه هواه إلى اختيار المال والشيطان والدنيا ، فزلت قدمه بعد ثبوتها ، وأصبح فى الأرض حيران استهوته الشياطين فهوى بعد أن اتبع الهوى ، تمرغ فى طين الأرض بعد ما تربع على قبة الفلك .. إن هذا العالم « بلعام ابن باعوارا » عالم بنى إسرائيل الذى قص الله علينا قصته فى سورة الأعراف حيث قال : « واتل عليهم نبأ الذى أتيناه آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه ، الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » .

فتأمل معى ماحتوى هذا المشهد القرآنى من أسرار وعجائب « إنه نبأ » .. ولايستعمل القرآن لفظ النبأ إلا إذا كان المقام خطيرا والخبر

عظيما جليلا ، فما بالك برجل آتاه الله آياته ٠ وآيات الله يكفيها شرفا أنها نسبت إلى الله وأضيفت إليه ، لتذهب النفس كل مذهب فى تفسيرها وتفصيلها وبيانها ، فقد اشتملت على الحكم الالهية والمواعظ والإرشادات والتوجيهات الربانية ، فماذا حدث هل تركها ؟ هل ابتعد عنها ؟ كلا لوكان الأمر كذلك لجاز أن يعود إليها بعد زمان طال أوقصر ، لكن القرآن أعطى معنى يدل على أن العود بالنسبة إليه من المحال ٠ قال تعالى : (فانسلخ منها) فما معنى الانسلاخ ؟ إن السلخ فى الأصل كشط الجلد عن اللحم ، وهويعطينا أن لاعودة ، فكما أن عودة الجلد إلى اللحم بعد سلخه أمر محال٠ كذلك عودة هذا الذى أظلم قلبه بحب الدنيا عودته إلى آيات الله أمر محال ، لقد كانت الآيات بالنسبةإليه وقاية وعناية له من غضب الله ، كما أن الجلد وقاية وعناية باللحم ، فلما انسلخ من الآيات أصبح عرضه لغضب الله ٠

لقد كانت الآيات تزينه وتجمله ، فلما انسلخ منها أصبح مشوها دميم المنظر قميئا ، فماذا كانت النهاية ؟ كانت النهاية (فكان من الغاوين) .. لماذا لم يكن من المغويين إنما كان من الغاوين ؟ لأنه أصبح أستاذا فى الغواية دليل ذلك قوله تعالى (فأتبعه الشيطان) ولم يقل فتبع الشيطان أى أنه أصبح بعد الضلال والانسلاخ من الآيات متبوعا فصار الشيطان له تابعا ٠٠ وهذا يذكرنا بقول أحد الحكماء :

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى

بى الحال حتى صار إبليس من جندى

ثم ماذا ؟ قال الله تعالى ولو شئنا لرفعناه بها فمشيئة الله لا

يعجزها شيء ، لكن الله لا يجبر أحدا على فعل شيء ، فماذا حدث من (بلعام) ؟ قال تعالى : « ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » وعبر القرآن بلفظ أخلد ليعطينا معنيين وهما : الميل والإطمئنان إلى ما مال إليه فهو عندما أخلد إلى الأرض مال إليها مطمئنا بها . وبدلا من أن يقول القرآن أخلد إلى الدنيا قال : أخلد إلى الأرض .. وهذا هو قدر الدنيا وقدر من مال إليها فهو فى الهاوية وفى الحضيض ، فما الدنيا إلا أرض تدمرمن مال إليها مطمئنا بها قلبه ؛ إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت وإذا أينعت نعت ، وكم من ملك رفعت له علامات . فلما علامات . نعم إنه اتبع هواه ، وما الهوى إلا نوازع النفس إلى مسالك الشر ، وما أجمل هذا التحذير من الله عندما يقول : ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) .. وما قاله أحد الحكماء جدير بالتأمل : من عرف الهوى فقد هوى .. وما قاله آخر « نون الهوان من الهوى محذوفة فإذا هويت فقد لقيت هوانا » .

❂ الدرس الثانى :

من دروس القرآن الكريم مع النفوس الشاردة يحدثنا الكتاب العزيز عن شخصية آخرى أخلد صاحبها إلى الأرض واتبع هواه بعد ما اقتحمت الدنيا قلبه فأظلم وأدلهم ومال وانتكس وفى أوحال الحياة ارتكس ، إنه « تعلبه بن حاطب » الذى قال الله فيه وأمثال ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفو الله ما وعده وبماكانوا يكذبون ، ألم

يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب» .

يقول العلامة ابن كثير ، يقول الله تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن آغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قاله ولاصدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة ، عياذا بالله من ذلك ، وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى أن سبب نزول هذه الآيه الكريمة فى ثعلبة بن حاطب الأنصارى الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع الله أن يرزقنى مالا . فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ويحك يا ثعلبه قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه ، ثم قال مرة أخرى فقال له الرسول : أما ترضى أن تكون مثل نبى الله فوالذى نفسى بيده لوشئت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت : قال : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبه مالا .. فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصرفى جماعة ويترك ماسواهما ، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهى تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما فعل ثعلبة ؟ » فقالوا يارسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال : ياويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة .. ولما أنزل الله جل ثناؤه « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » ولما نزلت فرائض الصدقة بعث رسول الله صلى الله عليه

وسلم رجلين على الصدقة من المسلمين : رجلا من جهينة ورجلا من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما : مرابثعلبة وبفلان . (رجل من بنى سليم) - فخذا صدقاتهما ... فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقه واقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : ماهذه إلا أخت الجزيه ما أدرى ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى فانطلقا وسمع بهما ألسلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقه ثم استقبلهما بها ، فلما رأياها قالا : مايجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك فقال : بلى فخذوها فإن نفسى بذلك طيبة وإنما هى له . فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذوا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أريانى كتابكما فقرأه فقال ماهذه إلاأخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيى فانطلقا حتى أتيا النبى صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال « ياويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى فأنزل الله عز وجل ... ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله : لنصدقن - الآيات .وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك ياثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا .. فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له الرسول : هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى ، فرجع إلى منزله ولم يقبل منه شيئا حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتى أبا بكر رضى الله عنه حين استخلف فرفض أيضا أبو بكر أن يقبل مارفضه الرسول ولما قبض أبو بكر وولى عمر أتاه أيضا فرفضها هو الآخر وكذلك عثمان رضى الله عنه وهلك ثعلبه فى

خلافه عثمان ٠

قوله تعالى : « بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون آى أعقبهم النفاق فى قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم كما فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف إذا اؤتمن خان » ٠

ماشأن هؤلاء وماصفاتهم ، وماحالهم الذين اتبعوا هو اهم ؟ إنهم فى تعب دائم وعذاب نفس لأنهم آثروا المادة على رضوان الله ٠ قال تعالى : « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث» ٠ إن تشبيه حالهم بالكلب فى أخس حالاته لافى أمانته وحراسته إنما فى تعبه وشقائه ، فهو دائما يلهث أى يخرج لسانه ويتنفس بصعوبه فى كل حالاته سواء زجرته وقسوت عليه أم أرحته وعطفت عليه ٠٠ كذلك هؤلاء الذين اتبعوا الهوى ٠ إذالم تعطهم الدنيا طلبوها وخطبوا ودها وإذا أعطتهم طلبوا المزيد منها ولوكان لأحدهم واديان من مال لابتغى ثالثا ولايملأ جوفه إلا التراب ٠أى أن حال هؤلاء القوم بئس الحال وماظلمهم الله لأنه بين وأرشد فكان منه الإيجاد والإمداد والإرشاد ولكنهم قابلوا ذلك كله بالجحود والإنكار والعثور والنفور ، ونسوا أن الله تعالى يعلم السر وأخفى (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب فإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموالا يصدقوا منها فإن الله أعلم بضمائرهم من أنفسهم لأنه تعالى علام الغيوب ٠٠ « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ٠ ربناإنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لايخلف الميعاد »

الغني في القناعة (٢)

تكلمنا فى المقال السابق عن مثلين من الأمثلة التى صورها القرآن الكريم للصراع بين النفس والمال وسيطرة شهوة المال مما أدى بهما إلى الجحود والإنكار لآيات الله فضيعا انفسهما باتباع الهوى وكانا مما قال الله عنهم « ساء مثلا القوم الذين كذبوا بأياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » والأن نتابع هذه الدروس التى ذكرها الله لنا عظة وعبرة لمن كان له قلب أوألقى السمع وهوشهيد .

❂ الدرس الثالث :

من هذه الدروس مع النفوس التى جرفها المال فانحرفت ماجاء فى سورة الكهف حيث قال تعالى : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من آعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ودخل جنته وهوظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا . لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا . ولولا إذا دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا . أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا واحيط بثمرة فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك

بربى أحـدا . ولم تكن له فئـة ينصـرونه من دون الله ومـاكـان منتـصـرا هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخيرعقبا » .

يقول العلامة ابن كثير : يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مـجـالس الضـعـفـاء والمساكين من المسلمين وافتـخـروا عليهم بأمـوالهم وأحسابهم فضرب لهم مثلا برجلين جعل الله لأحدهما جنتين أى بستانين من أعناب مـحـفوفتين بالنخيل المحدق فى جنباتهمـا وفى خلالهمـا الزروع وكل من الأشـجــار والزروع مثمــر . وكانتا فى غاية الجودة ولهذا قال : « كلتا الجنتين آتت أكلها » أى أخرجت ثمرها ولم تظلم منه شيئا أى ولم تنقص منه شيئا « وفجرنا خلالهما نهرا » أى والأنهار متفرقة فيها هـهنا وهـهنا « وكان له ثمر » قيل المراد به المال وقيل الثمار وهو أظهر هـهنا . فقال أى صاحب هاتين الجنتين لصاحبه وهو يحاوره أى يجادله ويخاصمة ويفتخر عليه ويترأس (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا أى أكثر خدما وحشما وولداً قال قتادة تلك والله أبنية الفاجر كثرة المال وعزة النفر . . « ودخل جنته وهـو ظالم لنفسـه » أى بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المــعاد « قـال مـاأظن أن تبيـد هـذه أبدا » . وذلك اغـتـرار منه لما رأى فـيـهـا من الزروع والأشجار والأنهار المطردة فى جوانبها وأرجائها ظن أنها تغنى ولا تفـرغ ولا تـهلك وذلك لقلة عـقله وضـعـف يقـينه بـالله وإعـجـابه بـالحـيـاة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة ، ولهذا قال « وما أظن الساعة قائمة » أى كـائنة « ولئن رددت إلى ربى لأجــدن خيـرا منها منقلبا » أى ولئن كـان مـعاد ورجـعـة إلى الله ليكونن لى هناك أحسن من هذا الحظ عند ربى ، ولولا كـرامـتى عليـه مـا أعطانى هذا كـمـا قـالت الآية الآخـرى : « ولئن رجـعــت إلى ربــى إن لى عنــده للحسنى » وقـــال : (أفـرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا) أى فى الدار الآخرة تألى على الله عز

وجل ، وكان سبب نزولها فى العاص ابن وائل ..

يقول تعالى مخبرا عما أجابه به صاحبه المؤمن وأعظاله وزاجرا عما هو فيه من الكفر بالله والأغترار (أكفرت بالذى خلقك من تراب) الآية .

وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذى خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم .. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .. ولهذا قال المؤمن : (لكنا هو الله ربى) أى لكن أنا لاأقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية (ولا أشرك بربى أحدا) ثم قال " ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً . هذا تحضيض وحث على ذلك أى هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد مالم يعطه غيرك وقلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله .وقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » وقوله : « فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك » دليل على يقينه بالله وأن الأيام دول بين الناس (ويرسل عليها) أى جنتك فى الدنيا التى ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى (حسبانا من السماء) أى عذابا من السماء والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها ولهذا قال (فتصبح صعيدا زلقا) أى بلقعا ترابا (أملس لا يثبت فيه قدم) وقوله (أويصبح ماؤها غورا) أى غائرا فى الأرض يصعب الاستفادة منه (فلن تستطيع له طلبا) وبالتالى لن تستطيع إرواء جنتك لأن الماء أساس خضرتها ونضرتها . (وأحيط بثمره) وقع بهذا

الكافر ماكان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التى اغتر بها وألهته عن الله عز وجل . (فأصبح يقلب كفيه على ماأنفق فيها) يصفق كفيه متأسفا متلهفا على الأموال التى أذهبها عليها ويقول : (يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا) ندم حيث لاينفع الندم . (ولم تكن له فئه ينصرونه من دون الله وماكان منتصرا)لم تنفعه عشير ته وولده كما افتخر بهم واستعـز ونسى الله فلا منقـذ من عـذاب الله . (هنا لك الولاية لله الحق) أى هناك الموالاة لله فكل مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب (هو خير ثوابا وخير عقبا) إن الأعمال التى تكون لله عز وجل ثوابها خيرا وعاقبتها حميدة رشيدة . أما فى حالة تغلب هوى النفس وخضوعها لسيطرة المادة فلا يلومن الإنسان إلا نفسه .

❂ الدرس الرابع :

من دروس المال والنفوس يتمثل أمامنا فى صورة رجل طغى وبغى عندما كثر ماله . فماذا فعل وكيف كانت عاقبته ؟ .. إليك ماقاله القرآن الكريم " إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندى أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتو

العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وماكان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين . من جاء بالحسنه فله خير منها ومن جاء بالسيئه فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلاما كانوا يعملون . إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين . وماكنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر لا اله الا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون . " .

قال المفسرون : قال ابن عباس فى شرح كلام الله تعالى (إن قارون كان من قوم موسى) إن قارون كان ابن عم موسى وهكذا قال أكثر أهل العلم ولكنه نافق كما نافق السامرى وكان بنو إسرائيل يلقبونه قبل نفاقه بالمنور لحسن صورته وسلوكه وقوله تعالى (فبغى عليهم) وذلك عندما تمكن النفاق من قبله بغى وظلم وحاق وجار ، ونسى الله كما نسى قومه . وهنا فتحت الدنيا عليه وأخطر بلاء يصاب به ابن آدم أن يبتلى بتسليط الدنيا عليه « يابن آدم إن لم ترض بما قسمت لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش فى البرية لا ينالك منها إلاما قسمته لك ولا أبالى » . قوله تعالى : (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) فيه كناية من كنايات القرآن

البديعة : فإذا كانت مفاتيح الكنوز لا يقوى على حملها الجماعات من الرجال الأقوياء الأشداء فما هو حجم تلك الكنوز نفسها ؟ مع العلم أنه قد ذكر أن هذه المفاتح كان كل مفتح منها لا يزيد على الإصبع . ومن هنا بدأ القوم الصالحون يوجهون إليه خمس نصائح إشفاقا عليه وخوفا أن يموت من الأشقياء الذين لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وجاءت النصائح على الترتيب التالى :

١- لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين .

٢ - وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة .

٣ - ولا تنس نصيبك من الدنيا .

٤ - وأحسن كما أحسن الله إليك .

٥ - ولا تبغ الفساد فى الأرض .

ثم عقبوا على ذلك بقوله تعالى : إن الله لايحب المفسدين . والفرح المنهى عنه كما قال مجاهد : الأشر والبطر أى الذى يدعوا صاحبه إلى الوقوع فيما يغضب الله وينسيه ذكره وشكره ويدخل فيه الاختيال والفخر كما قال تعالى : (إن الله لا يحب كل مختال فخور) .. وقد كان سلمان الفارس رضى الله عنه يقول : عجبت لثلاثة وبكيت لثلاثة : عجبت لغافل وليس بمغفول عنه ، وعجبت لمؤمل فى الدنيا والموت يطلبه ، وعجبت لضاحك ملء فيه لايدرى آلله راض عنه أم ساخط عليه . وبكيت لفراق الأحبة محمد وصحبه ، وبكيت لهول المطلع عند سكرات الموت وبكيت للوقوف بين يدى الله لاأدرى أينطلق بى إلى الجنة إم إلى النار .

وقد جاء فى صحف موسى كانت عبرا كلها : عجبت لمن أيقن بالموت

ثم هو يفرح . وعجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك . وعجبت لم أيقن بالقدر ثم هو ينصب . وعجبت لمن أيقن بالرزق ثم هو يتعب وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو يغفل . وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن قلبه إليها . وتأتى النصيحة الثانية متمثلة فى قوله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) أى استعمل ماوهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة .

وجــاءت الوصية الثالثة فى قوله تعالى : (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أى مما أباح الله فيها من المأكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح فإن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولزورك عليك حقا فآت كل ذى حق حقه . وجاءت الوصية الرابعة (وأحسن كما أحسن الله إليك) أى أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك . وجاءت الوصية الخامسة (ولا تبغ الفساد فى الأرض) أى لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به فى الأرض وتسىء إلى خلق الله (إن الله لا يحب المفسدين) هذه الوصايا الخمس التى وجهت إلى قارون إنما هى وصايا عامة لإصلاح نفوس الأغنياء حتى لاتطغى عليهم الماديات الخطيرة التى إذا تمكنت من القلوب أبعدتها عن ذكر الله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لايبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلاالنار وحبط ماصنعوا فيها ، وباطل ماكانوا يعملون) . إن أهل البطر والفساد خرجو من دائـــرة الحب الإلهى . ومن فقد هذا الجانب فقد تبدد جمعه وتمزق شمله .. فماذا كان رد قارون على هذه النصائح ؟ هذا ما سنتحدث عنه فى الحديث القادم إن شاء الله وبالله التوفيق .

الغني في القناعة (٣)

مازلنا نعرض لتلك النماذج التى ذكرها القرأن الكريم من النفوس البشرية التى خضعت تحت سيطرة المادة وكانت عاقبة أمرها وبالاً وجحيما . واليوم نواصل ما بدأناه فى النموذج الرابع وهو قارون الذى طغى وبغى عندما كثر ماله ونصحه قومه خمس نصائح بألا يفرح ، ويبتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة ، ولاينسى نصيبه من الدنيا ، ويحسن كما أحسن الله اليه ولا يبغى الفساد فى الأرض . فماذا كان رد قارون على هذه النصائح ؟

لقد ثارت ثورته وجن جنونه وأخذته العزة بالأثم . فنطق من منطلق المال ومن منطلق الغنى المطغى : (قال إنما أوتيته على علم عندى) .. وهذه الكلمة (عندى) إحدى كلمات ثلاث أودت بأصحابها إلى قاع الهاوية وما أدراك ماهى نار حامية . فابليس قال : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) فكلمة (أنا) إحدى هذه الكلمات طردت إبليس من رحمة الله إلى يوم يبعثون . وفرعون قال : (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون) فجاءت كلمة (لى) على لسان فرعون مجيء الفخر والكبر فكان مصيره أن يقدم قومه يوم القيامة (فأوردهم النار وبئس الورد المورود) .. فاحذر ياأخى من هذه الألفاظ الثلاثة التى تجرى على لسانك مجرى الإختيال والفخر ، وأعلم أن من تواضع لله رفعه ومن تكبر وضعه الله واسمع إلى ما قاله سيد ولد آدم : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر » .. ثم يبين الكبر فى كلمات موجزة وجيزة فيقول صلى الله

عليه وسلم : « الكبر غمط الناس وبطر الحق » .

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن الدراسات القرآنية الاستنباطية أن نذكر ما قاله نبى الله سليمان عندما وجد عرش بلقيس أمامه . لم يقل أناخير من يمشى على الأرض ولم يقل : أليس لى ملك بلقيس ولم يقل إنما أوتيته على علم عندى . إنما تذكر عظمة الله وكبرياءه وجلاله فقال : (هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم) .

وأى علم ياقارون ينفع صاحبه إن كان خاليا من نعمة الله وتوفيقه (ومابكم من نعمة فمن الله) وكان من هدى الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أصبح أن يقول : (اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك ولاشريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر) وكان أذا أمسى يقول اللهم ما أمسى بى من نعمة .... الخ .

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول مايجنى عليه اجتهاده

الحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأن ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك ، وكل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها . فماذا كان جواب الله على ما ادعاه قارون ؟ (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة و أكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) وهذا أسلوب القرآن فى معاملة الطغاة الجبابرة فيا ابن آدم إذا غرتك قوتك فلم استحكمت فيك شهوتك ؟ وإذا غرك غناك فارزق عباد الله يوما واحدا . من أنت يامن يناديك القبر كل

يوم ويقـول لك أنا بيت الدود أنا بيت التـراب أنابيت الوحـشـة أنا بيت الوحدة أنا بيت الغربـة أنا بيت الضيق إلا من وسـعنى الله عليـه من أنت حتى تتكبر على الله تعالى وأولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين هذا وذاك تحمل فى جوفك العذرة تنتنك عرقة وتؤذيك بقة وتقتلك وشرقة

يا مدعى الكبر إعجابـا بصورته   انظـر خـلاك فـإن النتن تثـريب

لوفكر الناس فيما فى بطونهـم   مـااستشعر الكبر شبان ولاشيب

يا ابن التراب ومأكول التراب غداً   آقصـر فأنك مأكـول ومشروب

واسـتـمـع مـعى إلى هذه الدر الغـوالى التى يقـدمـهـا لنا سـيـد ، البـشرية مـحـمـد صلى الله عليه وسلم فيـقول : « ليس الغنى عن كثـرة العرض ولكن الغنـى غنى النفس » ٠ وعن أبى هريرة رضـى الله عنه عن النبى صلـى الله عليه وسلم قال : « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه »

۞ أفتتان أهل الدنيا بقارون :

ثم يحكى لنا تعالى صورة لأهل الدنيا الذين يقدسون أصحاب المال والجاه فيقول جل شـأنه « فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ٠ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خـير لمن آمن وعـمل صـالحـا ولا يلقـاهـا إلا الصابرون ٠

يقول تعالى مخبرا عن قارون إنه خرج ذات يوم على قومه فى زينة

عظيمـــة وتجمل باهر من مراكب وملابس ، عليه وعلى خدمه وحشمه ٠ فلما رآى من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى « قالوا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم » من الدنيا فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) أى جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون ٠ يقول الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ٠ اقرءوا إن شئتم ٠

« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وقوله (ولا يلقاها إلا الصابرون) أى لا يلقى الجنة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون فى الدار الآخرة ٠

۞ نهاية محتومة :

« فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ٠ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون » لما ذكر تعالى اختيال قارون فى زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأن خسف به وبداره الأرض عقابا له ولأمثاله ٠ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » تفرد به الأمام أحمد وإسناده حسن ، وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبى الله عليه السلام واختلف فى سببه فعن ابن عباس والسدى أن

قارون أعطى امرأة بغيه مالا أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بنى إسرائيل وهو قائم فيهم يتلوا عليهم كتاب الله تعالى ، فتقول ياموسى إنك فعلت بى كذا وكذا . فلما قالت ذلك فى الملأ لموسى عليه السلام أرعد من الغرق وأقبل عليها بعد ماصلى ركعتين ثم قال : أنشدك الله الذى فرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا لما أخبرتنى بالذى حملك على ماقلت فقالت : أما إذ أنشدتنى فإن قارون أعطانى كذا وكذا على أن أقول ذلك لك وأنا استغفر الله وأتوب إليه فعند ذلك خر موسى لله عز وجل ساجدا وسأل الله فى قارون فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه . فأمر موسى االأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك .

وقيل إن قارون لما خرج على قومه فى زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة فمر فى محفله ذلك على مجلس نبى الله موسى عليه السلام وهو يذكرهم بأيام الله فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ماهو فيه فدعاه موسى عليه السلام وقال : ماحملك على ماصنعت ؟ فقال ياموسى أما لئن كنت فضلت على بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا ولئن شئت لنخرجن فتدعو على وأدعو عليك فخرج موسى وخرج قارون فى قومه فقال موسى عليه السلام : تدعو أو أدعو أنا ؟ فقال بل أدعو أنا فدعا قارون فلم يجب له ثم قال موسى : أدعوا ؟ قال : نعم فقال موسى اللهم مر الأرض أن تطيعنى اليوم فأوحى الله إليها أنى قدفعلت : فقال موسى : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ثم قال إلى مناكبهم ثم قال : أقبلى بكنوزهم وأموالهم فأقبلت بها حتى نظروا إليها ثم أشار موسى بيده ثم قال : اذهبوا بنى لاوى ..فاستوت بهم الأرض .

وقوله تعالى : (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وماكان من المنتصرين) أى ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله كان هو فى نفسه منتصرا النفسه فلا ناصر له من نفسه ولامن غيره ٠

۞ موقف عجيب :

ماذا كان حال الذين تمنوا أن يكونوا مثل قارون ؟ ٠٠ قال تعالى : (وأصبح الذين تمنوا مكان بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأن لايفلح الكافرون) ٠ وهكذا المظاهر الخلابة والماديات الجاذبة تلعب دورهما بأهل الدنيا ٠٠ ولقد جاء ختام هذه القصة والتعقيب عليها داعيا إلى انتباه الأذهان انتباهاً يدعوا إلى اليقظة : (تلك الدار الأخرة نجعلها للذين لايريدون علواً فى الأرض ولافساداً والعاقبة للمتقين من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئه فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلاماكانوا يعملون) ٠ يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذى لايحول ولايزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوا فى الأرض أى ترفعا على خلق الله وتعاظما عليهم وتجبرا بهم ولا فساداً فيهم كما قال عكرمة العلو : التجبر : وقال ابن جريج : (لا يريدون علوا فى الأرض) تعظما وتجبرا (ولافساداً) عملا بالمعاصى ٠

وقال ابن جرير حدثنا وليع حدثنا أبى عن أشعث السمان عن أبى سلام الأعرج عن على قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل فى قوله تعالى : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة

للمتقين) ٠ وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره فإن ذلك مذموم كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد » ٠ وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلا قال : يارسول الله إنى أحب أن يكون ردائى حسنا ونعلى حسنه أفمن الكبر ذلك ؟ فقال « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » ٠

ومن عجيب ما يروى فى هذا المقام أن هذا التعقيب جاء بعد قصتين لطاغيتين من طواغيت البشر هما فرعون وقارون ٠ فقد تحدثت هذه السورة الكريمة عن جبروت فرعون بما تهتز له الجبال الشم والرواس الشامخات ولنذكر جانبا منها على سبيل العبرة والتبرك بتلاوة القرآن : (إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين : ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ٠ ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون ٠ وأوحينا إلى أم موسى أن إرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ٠ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان ٠ وجنودهما كانوا خاطئين) ٠٠ فما قصته هذا الطاغية « فرعون » ؟ هذا ماسنعرفه فى الحديث القادم إن شاء الله وبالله التوفيق ٠

طاغية السلطان

في استعراضنا لتلك النماذج البشرية التى ذكرها لنا القرآن الكريم لتلك النفوس التى طغى فيها سلطان المادة على الروح ذكرنا قصة قارون كنموذج لطاغوت المال ، وبدأنا في قصة فرعون كنموذج لطاغية السطان .. والآن نتابع ما بدأناه فنذكر تلك الآيات القرآنية التى يبين لنا بها النظم الكريم مدي طغيان السلطة على هذاالطاغية فيقول سبحانه :

« فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالو ما هذا الا سحر مفتري وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . وقال موسى ربي اعلم بمن جاء بالهدي من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون . وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحالعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فأنظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ».

ويعقب القرآن الكريم على هاتين القصتين بتعقيب مهيب رهيب : (تلك الدار الآخره نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) فكلا الرجلين كان عاليا فى الأرض فافسدا فيها. والله يقول فى شأن فرعون : (أن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من

المفسدين). وقال قوم قارون له : (ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين) ثم تنطق العدالة الإلهية هذا المنطق المشرق المضئ : (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) . أى ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف تكون قيمته والله يضاعفه أضعافا كثيره وهذا مقام الفضل . أما قوله (من جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) فهو كما قال فى الآية الأخرى (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) وهذا مقام الفضل والعدل .

❂ الدروس المستفادة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

قبل أن ننتقل إلى الدرس الخامس من دروس النفوس البشرية التى طغى عليها حب الدنيا على الآخرة وكانت عاقبة أمرها وبالا وخزيا ، نطوف حول رياض السنة لنقطف منها الثمار الدانية التى تأخذ بيد السارى إلى شاطئ النجاة :

عن أبى هريره رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزال قلب الكبير شابا فى أثنتين حب الدنيا وطول الأمل » (رواه الشيخان والترمذى)

عن عبد الله رضى الله عنه قال : « خط النبى صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط خطا فى الوسط وقال هذا الإنسان و هذا أجله محيط به أو قد أحاط به وهذا هو الذى هو خارج : أمله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه

هذا » (رواه البخارى والترمذى)

وقال على رضى الله عنه : ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبله ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فكل أم يتبعها ولدها واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل .

إن المعيار الصادق والميزان الحكيم الذى وزن الإسلام به الأمور وقيمٌ به الرجال وحدد به المفاهيم هو ميزان التقوى . فلا المال ولا الحسب ولا النسب ولا القوة تصلح أن تكون معياراً لقيمة من القيم أو ميزانا لتقييم أيا كان نوعه ، بل إن منطق الإسلام يحدد المعيار والميزان فى قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فليس الغنى بالمال شرفا كما أن الفقر مع الفضيله ليس عيبا .

عن أبى أمامه رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « عرض علىّ ربى ليجعل لى بطحاء مكه ذهبا قلت لا يا رب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما . فإذا جعت تضرعت اليك وذكرتك وأذا شبعت شكرتك وحمدتك » .

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاه ، أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر وكان غامضا فى الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك ثم نفض يده فقال عجلت منيته قلت بواكيه قل تراثه ». (رواه الترمذى) .

وقيل لعبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ألسنا من فقراء

المهاجرين ؟ فقال : ألك امرأه تأوى إليها ؟ قال نعم . قال ألك مسكن تسكنه ؟ قال نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال : فإن لى خادما . قال : فأنت من الملوك . (رواه مسلم)

عن عمران بن حصين رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء . (رواه الشيخان والترمذى)

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل فقراء المسلمين الجنه قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائه عام » (رواه الترمذى)

وقالت عائشة رضى الله عنها قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة إن أردت اللحوق بى فليكفك من الدينا كزاد الراكب وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تستخلقى ثوبا حتى ترقعيه » . (رواه الترمذى)

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب المثل الأعلى والقدوة الطيبه والأسوة الحسنة فى رقى النفس البشرية إلى أرقى درجات الكمال فى سيطرتها على الشهوات عندما تخبرنا عائشة رضى الله عنها فتقول :

ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعا حتى قبض .

وعنها قالت : كان يأتى علينا الشهر ما يوقد فى بيتنا نار إنما هو

التمر والماء إلا أن نؤتى باللحم .

عن قتادة رضى الله عنه قال : كنا نأتى أنس بن مالك رضى الله عنه وخبازه قائم فقال : كلوا فما أعلم النبى صلى الله عليه وسلم رأى رغيفا مرققا حتى لحق بالله ولا رأى شاه سميطا بعينه قط (رواه البخارى)

عن عبد الله رضى الله عنه قال : نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر فى جنبه فقلنا يا رسول الله لوأتخذنا لك (أى فراشا لينا) فقال مالى وما للدنيا. ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم فى ساعه لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد. فأتاه أبو بكر رضى الله عنه فقال : ما جاء بك يا أبا بكر ؟ فقال : خرجت ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنظر فى وجهه ، فلم يلبث أن جاء عمر فقال : ما جاء بك يا عمر . فقال الجوع يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأنا قد وجدت بعض ذلك ، فانطلقوا إلى منزل أبى الهيثم بن التيهان الأنصارى وكان رجلا كثير النخل والشاء ولم يكن له خدم فلم يجدوه فقالوا لامرأته أين صاحبك فقالت انطلق يستعذب لنا الماء فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة يعزبها فوضعها ثم جاء يلتزم النبى صلى الله عليه وسلم ويفديه بأبيه وأمه ثم أنطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطا ثم انطلق إلى نخله فجاء بقنو فوضعه فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أفلا تنقيت لنا من رطبه ، فقال : يا رسول الله أنى أردت أن تخيروا من رطبه وبسره فأكلوا وشربوا من ذلك الماء .

فـقـال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : هـذا والذى نفـسى بيـده من النعيم الذم تسألون عنه يوم القيامه ظل بارد ورطب طيب وماء بارد .

فـانطلق أبو الهـيثم ليصنـع لهم طعـامـا فـقال النبى صلى الله عليـه وسلم : لا تذبحن ذات در ، فذبح لهم عناقا أو جديا فأتاهم بـها فـأكلوا . فقـال النبى صلى الله عليه وسلم : هـل لك خـادم ؟ قـال : لا. قـال فـأذا أتانا سبى فـأتنا . فأتى النبى صلى الله عليه وسـلم برأسين ليس معهما ثالث فـأتاه أبـو الهيثم فقال النبى صـلى الله عليـه وسلم : أخـتـر منهمـا . فـقـال يا نبى الله أخـتـر لى . فـقـال النبى صـلى الله عليـه وسلم : إن المسـتشار مؤتمن . خذ هذا فـأنى رأيتـه يصلى واسـتوصى به معـروفـا . فانطلق أبو الهيثم إلى امرأته فـأخبرها بقول رسـول الله صلى الله عليه وسلم . فـقـالت : مـا أنت ببـالغ مـا قـال فيـه النبى صلى الله عليـه وسلم حتى تعتقه فقال هو عتيق. فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يبعث نبيا ولا خليفه إلا وله بطانتان بطانه تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر وبطانه لا تألوه خبالا ومن يوق بطانة السوء فقد وقى .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كـان يقـول : آلله الذى لا اله الا هو إن كنت لأعـتـمـد بكبـدى على الأرض من الجـوع ، وإن كنت لأشـد الحـجـر على بطنى من الجـوع ، ولقـد قـعـدت يومـا على طريقـهم الذى يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسـألتـه عن آية من كتـاب الله مـا سـألتـه إلا ليشبعنى ، فمر فلم يفعل . ثم مر بى عمر فسألته عن آيه من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعنى ، فمر فلم يفعل . ثم مر بى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم ، فتبسم حين رآنى وعرف ما فى نفسى ومـا فى وجـهى ، ثم قـال يا أبا هر . قلت : لبـيك يا رسـول الله . قـال : الحق . فـمـضى

فتبعته ، فدخل فأستأذن فأذن لي . فدخلت فوجد لبنا فى قدح فقال : من أين هذا اللبن قالوا أهداه لك فلان أو فلانه . قال : أبا هر قلت لبيك يا رسول الله . قال : الحق إلى أهل الصفه فأدعهم لى . قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته صدقه بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا وإذا أتته هديه أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها . فسائنى ذلك فقلت : وما هذا اللبن فى أهل الصفة كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربه أتقوى بها فإذا جاءوا أمرنى فأعطيهم وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن . ولم يكن من طاعة الله ومن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بد ، فأتيتهم فدعوتهم ، فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت . قال يا أبا هر قلت لبيك يا رسول الله قال خذ فأعطهم فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح ، حتى أنتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم ، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى فتبسم فقال : يا أبا هر . قلت : لبيك يا رسول الله .قال : بقيت أنا وأنت . قلت : صدقت يا رسول الله . قال : أقعد فأشرب فقعدت فشربت . فقال : أشرب فشربت فما زال يقول أشرب حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا ، قال فأرنيي فأعطيته القدح فحمد الله فسمي وشرب الفضلة . (رواه البخارى والترمذى والأمام أحمد)

عن فضالة بن عبيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم فى الصلاه من الخصاصه وهم أصحاب الصفه حتى يقول الأعراب هؤلاء مجانين . فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصرف إليهم فقال : لو تعلمون

ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة قال فضالة وأنا يومئذ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . (رواه الترمذى بسند صحيح)

وهكذا اقتطفنا من روضة أحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بعض الثمار التى تعطى للنفس زادها وتقواها وتبين لها كيف التعامل مع المادة لنتجنب مصير من عرضنا ومن سنعرض من النماذج التى ذكرها القرآن الكريم لنحذر من اغراء الخضوع لسيطرة المادة ،

وفقنا الله وإياكم إلى ما يحبه ويرضاه ،

كذلك العذاب

ننتقل بالقارئ الكريم إلى الدرس الخامس من الدروس التي ذكرها لنا الحق جلّ شأنه لتلك النفوس التي خضعت لإغراء المادة فضيعت نفسها وحُرمت خيراً كثيراً .

❂ بين الله هذا الدرس في سورة « ن والقلم وما يسطرون ».

بسم الله الرحمن الرحيم : «إنا بلونهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين أن أغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون . إن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان الله ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

قال العلامة ابن كثير تعقيبا على هذه الآيات الكريمة وتفسيرا لها :هنا مثل ضربة الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى اليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة وهو بعث محمد صلى الله عليه وسلم إليهم فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ولهذا قال تعالى (إنا بلوناهم) أى أختبرناهم (كما بلونا أصحاب الجنة) وهى البستان

المشتمل على أنواع الثمار والفواكة (إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) أى حلفوا فيما بينهم ان يجنوا ثمرها ليلا لئلا يعلم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشئ (ولا يستثنون) أى فيما حلفوا به ، ولهذا حنثهم الله فى أيمانهم فقال تعالى (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) أى أصابتها آفة سماوية (فأصبحت كالصريم) قال ابن عباس : أى كالليل الأسود وقال الثورى والسدى مثل الزرع إذا حصد أى هشيما يبساً .

ولذلك فأن الرسول صلى الله عليه وسلم حذر من اتباع هوى النفس بتفضيل المال على طاعة الله فقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والمعاصى إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هئ له»ثم تلا الرسول الكريم «فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » قد حرموا خير جنتهم بذنبهم (فتنادوا مصبحين) أى لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضا ليذهبوا إلى الجذاذ أى القطع (أن أغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين) أى تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرثهم عنبا (فأنطلقوا وهم يتخافتون) أى يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعوا أحداً كلامهم . ثم فسر الله سبحانه وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى : (فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) أى يقول بعضهم لبعض لا تمكنوا اليوم فقيرا يدخلها عليكم . قال الله تعالى (وغدوا على حرد) أى قوة وشدة (قادرين) أى عليها فيما يزعمون ويرومون (فلما رأوها قالوا إنا لضالون) أى فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهى على الحالة التى قال الله عز وجل قد استحالت عن تلك النضارة والخضرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشئ منها فاعتقدوا أنهم قد

أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : (إنا لضـالون) أى قد سلكنا إليـها غير الطريق فتهنا عنها ، ثم رجعوا عما كانوا فية وتيقنوا أنها هى فقالوا (بل نحن محرومـــون) أى بل هى هـــذه ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب . (قال أوسطهم) قال المفسرون أى أعدلهم وخيرهم . (ألم أقل لكم لولا تسبحون) أى لولا تستثنون قال السدى وكان استثناؤهم فى ذلك الزمان تسبيحا ، وقال بن جرير هو قول القائل أن شاء الله . وقيل معناه أن أوسطهم قال لهم :هلا تسبحون الله وتشكرون على ما أعطاكم وأنعم به عليكم . (قالوا سبحان ربنا أنا كنا ظالمين) أتوا بالطاعة حيث لا تنفع وندموا وأعترفوا حيث لا ينجع ولهذا قالوا (إنا كنا ظامين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) أى يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب (قالوا يا ويلنا أنا كنا طاغين) أى أعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا . (عسى ربنا أن يبدلنا خير منها إنا إلى ربنا راغبون) قيل رغبوا فى بذلها لهم فى الدنيا وقيل احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة والله أعلم . ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن قال سعيد بى جبير كانوا من قرية يقال لها ضروان على ستة أميال من صنعاء . وقيل كانوا من أهل الحبشة وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إلية ويدخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا :لقد كان أبونا أحمق أذ كان يصرف من هذه شيئا للفقراء ، ولو أنا منعناه لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم فأذهب الله ما بأيديهم

بالكلية : رأس المـــال والربح والصدقة ، ولم يبق لهم شئ . قال تعالى : (كذلك العذاب) أى هكذا العذاب عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوى الحاجات وبدل النعمة ، نعمة الله كفرا .

(ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أى هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق ، وقد ورد فى حديث رواه الحافظ البيهقى من طريق جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بى أى طالب عن أبية عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الجذاذ بالليل والحصاد بالليل .

فأنظر يا أخى نظرة المتأمل مدى الخطر المترتب على نطق اللسان بالسوء (إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) وكيف تجاوب اللسان مع النية ؟ (ولا يستثنون) أى صمموا وعزموا دون أن ينطقوا بالمشيئة المهيمنة أو يستثنوا نصيب الفقراء ، وكيف قطعوا على أنفسهم عهدا أن يقوموا فى الصباح قبل أن تبرز الغزالة من خدرها ، وقبل أن يتنفس الصبح ويسفر الفجر فعاملهم الله بالعقاب من حيث لم يحتسبوا وكانوا وقتها نائمين والعقاب يقظ (فطاف عليهم طائف من ربك وهم نائمون) . ثم أنظر وقد عزموا على أن يقطعوها هم فأحرقتها النار فأصبحت كالصريم ، وكيف قاموا من سباتهم (فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين) وكيف أسروا النجوى فى أنفسهم (وأقبل بعضهم على بعض) فانطلقوا وهم يتخافتون وعزموا على الأمر السئ والنية المشئومة (أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) وغدوا فى زعمهم قادرين على المنع (وغدوا على حرد قادرين) فماذا كانت المفاجأه ، كانت

رهيبـــه ومـهيبه وعنيفـة تنخلـــع من هولها االأفـئدة وتنفطر من جبـروتها القلوب .

لقد ضلوا عن طريق جنتهم فى زعمهم لأنها أصبحت أثرا بعد عين (فلمـــا رأوها قـــالوا إنا لضــالون) ثم ســابوا إلى رشــدهـم (بل نـحن محرومون).

ثم قـال لهم أعقلـهم وأكيسـهم (ألـم أقل لكم لولا تسبحـون) فقـالوا بعـد فـوات الأوان (سبـحـان ربنا إنا كنا ظالمين) . قـالوها والنـدم يكوى النفوس ويسيل النفس مراره ولوعة (عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون) وهكذا تعمل النية عملها .

صدقت يا سيدى يا رسـول الله : « إنما الأعمـال بالنيات وإنما لكل امرئ مـا نوى » . وصـدقت يا أبا القاسـم « ليس الإيمـان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصـدقة العمل ، وإن قومـا غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيـا ولا حـسنة لـهم ، وقـالوا نـحن نـحـسن الظن بالله وكـذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

أخى المسلم إليك هذه الوصـايا النبوية الشريفة أرجوا أن تعمل بها لأن فيها النجاة فى الدنيا والآخرة ومن لنا غير رسولنا الحبيب نتزود منه نورا لحـياتنا ونتـأسى به فى سلوكنا فـهـو المعلم الأكبـر مـعلم البشـرية جمعاء :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين مـا فيها يهوى بها فى النار أبعد مـا بين المشـرق والمغرب » (رواه الشـيـخـان والترمـذى). ولفظة إن الرجل

ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا فى النار.

وعنه أن النبى صلى الله عيه وسلم قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم » . (رواه الببخارى والترمذى) .

ولفظة إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله بها رضوانة إلى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه .

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » . (رواه الأربعة)

عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنه » (رواه الشيخان والترمذى)

عن سفيان الثقفى رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله حدثنى بأمر أعتصم به . قال : « قل ربى الله ثم استقم قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علىّ فأخذ بلسان نفسه ثم قال هذا » .

عن عقبه بن عامر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ما النجاه قال «امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك» .

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا تكثثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير الله قسوة للقلب

وإن أبعد الناس من الله ذو القلب القاسى » .

عن أم حبيبة رضى الله عنهـا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر إو ذكر الله تعالى » .

عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا » .

.عن معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله » .

عن واثلة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك » . (روى هذه السبعة الترمذى) ومن وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم : « السلامة فى العزلة » .

عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : أى الناس خير قال « رجل جاهد بنفسه وماله ، ورجل فى شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره » . (رواه البخارى وأحمد)

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يأتى على الناس زمان يكون خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها سعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » (رواه البخارى وأبو داود) .

وعن عطية السعدى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به البأس » . (رواه الترمذى والحاكم)

وعن على بن الحسين رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» . (رواه الترمذى وأحمد والحاكم) .

عن أنس رضى الله عنه قال : توفى رجل من الصحابة فقال رجل : أبشر بالجنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوتدرى فلعله تكلم فيما لا يعنية أو بخل بما لا ينقصة » (رواه الترمذى) .

وهكذا فإن جهاد النفس ليس له حدود حتى تعرف ربها وتخضع لشريعته وسنة رسوله الكريم فتنهى حياتها الدنيا وترجع إلى الله راضية مرضية ندعوا الله أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه وأن يزكى نفوسنا فهو خير من زكاها .

المال والنفس

يقول فيه مولانا تبارك وتعالى : « ذرنى ومن خلقت وحيدا. وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . . ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر عليها تسعة عشر » .

والمراد بهذا الذى يقص الله علينا شأنه هو الوليد بن المغيرة الذى سبق أن ذكر الله صفاته عندما أساء الوليد الأدب على رسول الله فاتهمه بالجنون . قال تعالى : « ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » فبعد أن نفى الله تعالى تهمة الجنون عن حبيبه ومصطفاه وأثبت له الأجر والثواب الذى لا ينقطع أبداً ولا ينقضى سرمداً ، ومدحه بما منحه وشهد له بالخلق العظيم . قال تعالى مهدداً وموعداً فسترى وترون من المجنــون ومن الذى افتن فى عقلة ومحن ، ثم واسى حبيبه فقال : « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . ثم ذكر بعد ذلك صفات الوليد فقال : فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتداً أثيم عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين سنسمه على الخرطوم » .

ففى الصفة الأولى جعل التكذيب من شأنه ، فهو من المكذبين بالحق المجادلين بالباطل وأنه ومن على شاكلته يودون لو مال الرسول إليهم ، فهم بذلك يدهنون ويخادعون . ووصفه ثانياً بأنه حلاف ، والحلاف صيغة مبالغة من الحلف ، والرجل إذا كثر حلفه كثر كذبه ، لأنه سيستهين بجلال الله وعظمته ، ووصفه ثالثاً بأنه مهين أى حقير ، وأيى حقارة تلك التى يتصف صاحبها بهذه الصفات ، ووصفه الله تعالى رابعاً أنه هماز أيى كثير الهمز والعيب والطعن . ووصفه تعالى خامساً أنه مشاء بنميم أى كثير المشى فى الإفساد بين الناس وقطع الصلات والقضاء عليى ما بين النفوس من مودة ورحمة . وقد صدق الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول « لا يدخل الجنة نمام » وبين الله تعالى صفته السادسة بقوله مناع للخير : أى كثير المنع لا يجود ، إنما هو بخيل شحيح ، والبخل والإيمان لا يجتمعان فى قلب واحد . وبين الله صفته السابعة بأنه معتد أى ظالم يتجاوز حدود ما أمر الله به ، معتمداً على ماله وبنيه ، وبين الله تعالى صفته الثامنة بأنه أثيم أى كثير الآثام والذنوب والأوزار ، ويختم الله هذه الصفات بصفتين مناسبتين لما سبق من الصفات فيصفه بأنه عتل أى قاس القلب غليظ ، لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً ، ثم يصفه عاشراً بأنه زنيم أى فاحش سئ الخلق ، ما الذى دفعه إلى كل هذا ؟ كثرة ماله وكثرة أولاده جعلتا قلبه مليئا بالغرور والكبر ، حتى قال عن القرآن إنه أساطير الأولين وخرافات السابقين ، فأوعده الله عقاباً من جنس العمل قال « سنسمه على الخرطوم » أى سنكويه على أنفه ونحدث له وشماً أى علامة على عضو الجمال فى الوجه ولم يقل على أنفه إنما قال الخرطوم تشبيهاً له بالفيل ، فالخرطوم هو أنف الفيل ، ويزيدنا القرآن الكريم توكيداً لعقوبته وتفصيلاً لشخصية

الوليد ، فيقول فى سورة المدثر : « ذرنى ومن خلقت وحيداً » ... الخ الآيات .

يقول العلامة ابن كثير : يقول الله تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدلها كفراً وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها وجعلها من قول البشر ، وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال تعالى : « ذرنى ومن خلقت وحيداً » أى خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله تعالى « مالاً ممدوداً » أى واسعاً كثيراً قيل ألف دينار وقيل مائة ألف دينار وقيل أرضاً يستغلها وقيل غير ذلك . وجعل له « بنين شهوداً » قال مجاهد لا يغيبون أى حضورا عنده لا يسافرون بالتجارات بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملى بهم ، وكانوا فيما ذكره المفسرون ثلاثة عشر ، وهذا أبلغ فى النعمة وهو إقامتهم عنده .

« ومهدت له تمهيداً » أى مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك « ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا » أى معاند وهو الكفر على نعمة بعد العلم ، قال تعالى « سأرهقه صعوداً » . قال النبى صلى الله عليه وسلم « هو جبل فى النار من نار يكلف آن يصعده فإذا وضع يده ذابت وإذا رفعها عادت فإذا وضع رجله ذابت وإذا رفعها عادت » رواه البزاز وابن جرير من حديث شريك به .

وقوله تعالى « إنه فكر وقدر » أى إنما أرهقناه صعوداً أى قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان لأنه فكر وقدر أى تروى ماذا يقول فى القرآن حين سئل عن القرآن ففكر ماذا يختلق من المقال وقدر أى تروى « فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر » وعاد عليه « ثم نظر » أى

أعاد النظرة والنزوى « ثم عبس » أيى قبض بين عينيه وقطب « وبسر » أى كلح وكره . وقوله « ثم أدبر واستكبر » أى صرف الحق ورجع القهقريى مستكبراً عن الانقياد للقرآن «فقال إن هذا إلا سحر يؤثر » أى هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم ولهذا قال « إن هذا إلا قول البشر » أيى ليس بكلام الله . وهذا المذكور فى هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومى أحد رؤساء قريش لعنه الله وكان من خبره فى هذا ما رواه العوفى عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبى بكر بن أبى قحافة فسأله عن القرآن فلما أخبره خرج على قريش فقال : عجبا لما يقول ابن أبى كبشة ، فوالله ما هو بشعر من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا والله لئن صبأ الوليد لتصبأن قريش ، فلما سمع بذلك أبو جهل ابن هشام قال أنا والله أكفيكم شأنه فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألست أكثرهم مالاً وولداً ؟ فقال له أبو جهل : يتحدثون إنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه . فقال الوليد : أقد تحدث بهذا عشيرتى !

۞ الدرس السابع : فى الصبر على حكم الله تعالى :

قال الله تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم »

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى « ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفية من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » رواه البخارى .

وعنه عن النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ، ومثل الكافر كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد » . (رواه الشيخان والترمذى) .

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » .

عن مصعب بن سعد عن أبية رضى الله عنهما : قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاءاً قال « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة » .

عن عائشة رضى الله عنا قالت ما رأيت الوجع أشد منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى يوم القيامة » .

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط » .

عن سعد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له ، ومن شقاوة ابن آدم تركه

استخارة الله ، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله له » .

عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت فى الدنيا بالمقاريض » . رواه الترمذى هذه السبعة .

عن حذيفة رضى الله عنه كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أحصوا لى كم يلفظ الإسلام فقلنا يا رسول الله أتخاف ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة قال إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا . قال فابتلينا حتيى جعل الرجل منا لا يصلى إلا سراً » .

عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها » (رواهما مسلم) .

وهكذا فإن الصبر على حكم الله تعالى هو خير دواء للنفس البشرية فى كبح جماح رغباتها التى لا نهاية لها وبالتالى فإنه يساعدها فى صراعها ضد الشهوات التى تجنح بها عن الصراط المستقيم . وبالتالى فعلى الإنسان المسلم أن يتسلح بالصبر ويرضى بما رضى الله به فهذا هو الفوز المبيين .

۞ الدرس الثامن : فى القضاء والقدر :

عن عبد الله رضى الله عنه قال : الشقى من شقى فى بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره فسمعه رجل فأتى حذيفة فأخبره بذلك وقال : كيف يشقى رجل بغير عمل فقال حذيفة أتعجب من ذلك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم يقول يا رب أجله فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول يارب رزقه فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك بالصحيفة فى يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص » . (رواه مسلم) .

عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكاً فيقول أى رب نطفة أى رب علقة أى رب مضغة ، فإذا أراد الله أن يقضى خلقاً قال الملك أى رب ذكراً أو أنثى شقى أو سعيد فما الرزق فما الأجل فيكتب كذلك فى بطن أمه . رواه الشيخان .

ولهذا فإن الإيمان بالقضاء والقدر من أساسيات الإيمان بالنسبة للمؤمن الذى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره .. ندعو الله أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .. وللحديث بقية .

۞ فى القضاء والقدر :

نتابع هنا ما بدأناه فى المقال السابق عن الرضا بالقضاء والقدر كوسيله لتربية النفس وقمع شهواتها حتى تتبع الهدى صراطا مستقيما بما يرضى الله ورسوله :

عن على رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ذات يوم وفى يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال « ما منكم من نفس ألا وقد علم منزلها من الجنة والنار قالوا يا رسول الله فلم نعمل أفلا نتكل ؟ قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) الآيتين (رواه الأربعة) . قيل يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ففيم العمل اليوم ، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل ؟ قال لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير قال ففيم العمل ، قال كل عامل ميسر لعمله . رواه مسلم والترمذى ولفظه قال عمر يارسول الله أرأيت ما نعمل فيه أمر مبتدع أو فيما قد فرغ منه فقال فيما قد فرغ منه ياابن الخطاب كل ميسر . أما من كان من أهل السعادة ، فإنه يعمل للسعادة وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء .

عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : إن رجلين من مزينه أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يارسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشئ قضى عليهم ومضى أو فيما يستقبلون به فقال لا بل شئ قضى عليهم وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) . (رواه مسلم والترمذى) عن عبد الواحد بن سليم رضى الله عنهما قال : قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبى رباح فقلت يا أبا محمد إن أهل البصرة يقولون فى القدر . قال يابنى أتقرأ القرآن قلت نعم قال فاقرأ الزخرف فقلت « حم والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » فقال أتدرى ما أم الكتاب ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال فإنه كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السماوات والأرض

فيه إن فرعون من أهل النار ، وفيه تبت يدا أبى لهب .

قال عطاء : فلقيت الوليد بن عبادة ابن الصامت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته ما كان وصية أبيك عند الموت قال دعانى أبى فقال لى يابنى أتق الله واعلم أنك لن تتقى الله حتى تؤمن بالله وتؤمن بالقدر كله خيره وشره فإن مت على غير هذادخلت النار . إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول ما خلق الله القلم فقال اكتب . قال ما أكتب ؟ قال القدر ما كان وماهو كائن إلى الأبد.(رواه الترمذى وأبو داود) وقال عبد الله بن فيروز الديلمى : أتيت أبى بن كعب فقلت له وقع فى نفسى شئ من القدر فحدثنى بشئ لعل الله تعالى أن يذهبه من قلبى . فقال لو أن الله تعالى يعذب أهل سمواته وأهل أرضه لكان غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته إياهم خير لهم من أعمالهم . ولو أنفقت مثل أحد ذهبا فى سبيل الله تعالى ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لدخلت النار ، قال ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ثم أتيت زيدبن ثابت فحدثنى عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثل ذلك . (رواه أبو داود) .

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عز وجل خلق خلقه فى ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله تعالى » . (رواه الترمزى فى الإيمان) .

۞ الدرس التاسع : النهى عن الجدل فى قدر الله تعالى

من السمات التى يتسم بها الإسلام أنه دين عملى واقعى يحترم العقل ويقيم الموازين للفكر السليم ولا يرضى لأتباعه أن يجادلوا فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ويقرر أن الله إذا غضب على قوم رزقهم الجدل ومنعهم العمل ، وهذه إشارة إلى ضلالهم بعد الهدى .

وفى القرآن الكريم موقفان يدلان دلاله صادقة على أن المسلم إذا سأل ينبغى أن يسأل عما يفيد : سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأهلة أى منازل القمر فلم تكن الأجابه ممّ صنعت الأهلة ولا عن معدنها ، وإنما كانت الإجابه عن فوائدها . لم يقل لهم إن الأهلة من ذهب أو فضةّ أو نحاس أو رصاص ، كل هذا لا طائل تحته . إنما علمهم أن يسألوا عما يفيد .

والآية الثانية "يسألونك ماذا ينفقون " فأجابهم لا عن ماذا إنما كانت لمن ينفقون . قال تعالى « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » . فكانت الإجابة هنا : ما أنفقتم من خير فلهذه المصارف ولا داعى إلى أن يقول ما أنفقتم من ذهب أو فضه لأن الخير أعم من هذا .

ونخلص من هذه المواقف إلى أن المؤمن يجب أن يكون رقيبا على لسانه محافظا على وقته بصيرا بعيوبه عالما بشئونه . ومما نهى عنه الإسلام الجدل فى القدر لأن الأمة إذا وقعت فى الجدال كان ذلك دليلا على إفلاسها الفكرى ، وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى

ذلك أحاديث نوردها فيما يلى . عن أبى هريره رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان فقال « أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر عزمت عليكم ، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه »

عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه » . « رواهما الترمزى » .

عن عائشه رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « سته لعنتهم لعنهم الله وكل نبى كان : الزائد فى كتاب الله والمكذب بقدر الله والمتسلط بالجبروت ليعز بذلك من أذل الله ويذل من أعز الله ، والمستحل لحرم الله والمستحل من عترتى ما حرم الله والتارك لسنتى » « رواه الترمزى والحاكم بسند صحيح »

ومن ثم فإن الآجال والأرزاق محدودة . قال الله تعالى : (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . قالت أم حبيبة رضى الله عنها : اللهم متعنى بزوجى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبى أبى سفيان وبأخى معاوية ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك سألت الله لآجال مضروبة وآثار موطوءة وأرزاق مقسومة لا يعجل شيئا منها قبل حله ولا يؤخر منها شيئا بعد حله ، ولو سألت الله أن يعفيك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر لكان خيراً لك ، فقال رجل يارسول الله القردة والخنازير هى مما مسخ فقال : إن الله عز وجل لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا وإن القردة والخنازير كانوا قبل

ذلك » (رواه مسلم)

وقال خالد الحذاء رضى الله عنه : قلت للحسن ياأبا سعيد أخبرنى عن آدم عليه السلام ألسماء خلق أم للأرض . قال لا بل للأرض قلت أرأيت لو اعتصم فلم يأكل من الشجرة قال لم يكن منه بد ، قلت أخبرنى عن قوله تعالى (ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم) قال إن الشياطين لا يفتنون بضلالتهم إلا من أوجب الله عليه الجحيم ، وسأله عن قوله تعالى : (ولذلك خلقهم) قال خلق هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه . (رواهما أبو داود)

۞ نعوذ بالله من سوء الخاتمة :

عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » فقلنا يارسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال « نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء » (رواه الترمذى ومسلم) ولفظه « إن قلوب بنى أدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء » .

وعن أبى هريره رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مامن مولود إلا يولد على الفطره فأبواه يهودانه أوينصرانه أويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » .

ثم قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم (فطرة الله التى فطر الناس عليها) .

فـقـال « من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هـذا » فاتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشد الناس على المشركين حتى جرح فاستعجل الموت فعجل ذبابة سيفه بين ثدييه حتى خرج من كتفيه ، فأقبل الرجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم مسرعا فقال أشهد أنك رسول الله فقال وماذاك ؟ قال قلت على فلان من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل ا لنار فلينظر إليـه وكـان من أعظمنا غناء عن المسلمين ، فعرفت أنه لا يموت على ذلك . فلما جرح استعجل الموت فقتل نفسه فقال النبى صلى الله عليه وسلم عند ذلك « إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة ، ويعـمـل عـمـل أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنما الأعمال بالخواتيم » . (رواه البخارى) .

عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله ، فقيل كيف يستعمله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت » . (رواه الترمذيى بسند صحيح)

۞ وجوب المبادره بالعمل الصالح :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النـبى صـلى الله عليـه وسلم قال : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض الدنيا » (رواه مسلم والترمذى)

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: بادروا بالأعمال سبعا « هل تنتظرون إلا فقرا منسيا أوغنى مطغيا أومرضا مفسدا أوهرما مفندا أوموتا مجهزا أو الدجال فشر غائب ينتظر أوالساعة فالساعة أدهى وأمر » (رواه الترمذى والحاكم) .

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : بادروا بالأعمال ستا « طلوع الشمس من مغربها أو الدخان أو الدجال أو الدابة أو خاصة أحدكم أو أمر العامة » (رواه مسلم والإمام أحمد) .

وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (رواه البخارى والترمذى) .

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره » (رواه الشيخان والترمذى) .

ومعنى الشهوات أى ماتشتهيها النفوس وتستلذها من المحرمات كالزنا وشرب الخمر والملاهى فهذه كالحجاب حول النار ، فمن ارتكبها فقد تسبب فى دخول النار ، والمكاره ماتكره النفوس من التكاليف الشرعية ومكارم الأخلاق كالصبر وكظم الغيظ والعفو عن المسئ والإحسان إليه ، فهذه كالحجاب حول الجنة فمن قام بها فقد سبب لنفسه الجنة ، ولفظ مسلم والترمذى « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » .

اللهم إنا نسألك الجنة وما يقرب إليها من قول أوفعل ونستعيذ بك من النار وما يقرب إليها من قول أو فعل إنك سميع مجيب الدعوات .

عظات بالغة

عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنى أرى مالاترون ، وأسمع مالاتسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وماتلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله ، لوددت أنى كنت شجرة تعضد » أى كنت خلقت شجرة فتقطع وتذهب وتصير فى خبر كان .

فهذه من النبى صلى الله عليه وسلم كلمه كبيرة تدل على أن مايراه من المغيبات عنا عظيم يتمنى الموت من هول ما يرى . وهذا يتطلب منا جهادا عظيما لنفوسنا حتى تتغلب على شهواتها وتتجه إلى رحاب الحق .

۞ التوكل على الله :

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » (رواه الشيخان والترمذى)

وعن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » (رواه الترمذى و أحمد والحاكم) .

عن أنس رضى الله عنه أن رجلا قال يارسول الله أعقلها و أتوكل أوأطلقها وأتوكل . فقال « أعقلها وتوكل » (رواه الترمذى)

عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من نزلت به فاقه فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن نزلت به فاقه فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو أجل عاجل » .

عن أنس رضى الله عنه قال : كان أخوان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فكان أحدهما يأتى النبى صلى الله عليه وسلم والآخر يحترف فشكا المحترف أخاه للنبى صلى الله عليه وسلم فقال « لعلك ترزق به » .

وكتب معاوية رضى الله عنه إلى عائشة رضى الله عنها أن اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى على . فكتبت إليه : سلام عليك أمابعد : فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونه الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » والسلام عليك . (روى هذه الثلاثه الترمذى) .

◎ فى الرقائق :

عن أبى هريره رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد أذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ،

ولإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وماترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته . (رواه البخارى والإمام أحمد)

عن البراء رضى الله عنه قال : خرجنا مع النبى صلى عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير وفى يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ثم قال : « إن المؤمن إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وهو يسمع خفق نعالهم يأتيه ملكان فيجلسان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولان وما يدريك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت . فذلك قول الله تعالى « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياه الدنيا وفى الآخرة » . فينادى مناد من السماء أن قد صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة . قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفتح له فيه مد بصره . وإن الكافر أو المنافق إذا وضع فى قبره وعادت روحه فى جسده يأتيه ملكان فيجلسان فيقولان له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى . فيقولان مادينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى ، فيقولان ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى . قال فينادى مناد من السماء أن كذب فأفرشوه من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار . قال فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبه من حديد لو ضرب بها جبل لصار ترابا فيضربه

بها ضربه يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير ترابا ثم تعاد فيه الروح » . (رواه أبو داود والنسائى) .

عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مامن حافظين رفعا إلى الله ما حفظا من ليل أو نهار فيجد الله فى أول الصحيفة وفى آخر الصحيفه خيرا إلا قال الله تعالى : « أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى مابين طرفى الصحيفة » (رواهما الترمذى فى الجنائز) .

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمه ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له . (رواه الترمذى) .

عن أبى هريره رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يقول ياابن آدم تفرغ لعبادتى أملا صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت يديك شغلا ولم أسد فقرك » (رواه الترمذى) .

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الطاعم الشاكر بمنزله الصائم الصابر » . (رواه الترمذى وأحمد والحاكم) .

عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثه يحبهم الله وثلاثه يبغضهم الله . فأما الذين يحبهم الله فرجل أتى قوما فسألهم بالله ولم يسألهم لقرابه بينه وبينهم فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سرا لا يعلم بعطيته إلا الله تعالى والذى أعطاه ، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذاكان النوم أحب إليهم مما يعدل به فوضعوا

رءوسهم فقام أحدهم يتملقنى ويتلوا آياتى ، ورجل كان فى سرية فلقى العدو فهزموا فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له . والثلاثه الذين يبغضهم الله : الشيخ الزانى ، والفقير المختال ، والغنى الظلوم » . (رواه الترمذى وابن حبان والحاكم)

عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مصلاه فرأى ناسا كأنهم يكتثرون فقال « أما إنكم لو أكثرتم ذكر هازم اللذات لشغلكم عما أرى . فأكثروا ذكر هازم اللذات (الموت) فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول : أنا بيت العزبه وأنا بيت الوحدة وأنا بيت التراب ، وأنا بيت الدود فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر مرحبا وأهلا أما إن كنت لأحب من يمشى على ظهرى إلى فإذا وليتك اليوم وصرت إلى فسترى صنيعى بك . قال فيتسع له مد بصره ويفتح له باب إلى الجنة . وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر فقال له القبر لا مرحبا ولا أهلاً ، أما إن كنت لأبغض من يمشى على ظهرى إلى فإذا وليتك اليوم وصرت إلى فسترى صنيعى بك ، قال فليلتئم عليه حتى تلتقى عليه وتختلف أضلاعه . قال رسول الله عليه وسلم بأصابعه فأدخل بعضها فى جوف بعض قال : ويقيض الله سبعين تنينا (ثعبانا) لو أن واحدا منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئا ما بقيت الدنيا فينهشنه ويخدشنه حتى يفضى به إلى الحساب . قال : وقال رسول الله صلى عليه وسلم : إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » (رواه الترمذى) .

واعلم يا أخى أن فضل الله هو السبب الأول فى دخول الجنة فالمؤمنون يدخلون بفضله تعالى ويقتسمون درجاتها بأعمالهم ، وهذا هو الجمع بين قوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) وقوله جل شأنه (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) وبين قول النبى صلى الله عليه وسلم : « قاربوا وسددوا واعملوا أنه لن ينجوا أحد منكم بعمله قالوا يا رسول الله ولا أنت قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » . وفى روايه « لا يدخل أحدا منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا إلا برحمه من الله » (رواه الشيخان والنسائى) .

۞ فضل الصدقة :

قال الله جل شأنه : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم . ألم يعملوا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم » .

بينما يرغب القرآن فى الصدقات فى هذا الموضع يحذر تحذيرا شديدا فى موضع آخر من كنز المال وهو المال الذى لم تخرج زكاته . فيقول جل شأنه « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الخير . (اصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله فإن صادف أهله فهو أهله وإن لم يصادف أهله فأنت أهله) .

واعلم ياابن آدم أنك يوم تموت تصاب بمصيبتين : الأولى أنك تترك مالك كله ، والثانيه أنك تسأل عن مالك كله . وقد قيل للرجل الصالح محمد بن كعب القرظى وكان غنيا . قيل له وهو على فراش الموت ماذا تركت لأولادك من المال ، قال ادخرت مالي لنفسى عند ربى وادخرت ربى لأولادى . نعم (وليخش الذين لوتركوا من خلفهم ذريه ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » .

وما أجل هذا الموقف المهيب : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا

أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا » .

هذا خطاب وجهه العبد الصالح إلى كليم الله ونجيه موسى وتأمل معى : نبى من أولى العزم وعبد صالح علمه الله من لدنه علما يتوجهان لرفع جدار يريد أن ينقض ليحتفظ بكنز تحته ، وسر كل هذا صلاح الآباء فإنه ينفع الأبناء بل وتقوى الأجداد تنفع الأحفاد .

ومن رياض السنة نقتطف هذا الحديث ليبين ما ينتظر الإنسان الذى يتصدق ولا يغلبه حب المال فيكنزه . عن أبى ذر رضى الله عنه قال « خرجت ليلة من الليالى فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى وحده ليس معه إنسان فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد فجعلت أمشى فى ظل القمر فالتفت فرآنى فقال ماهذا ؟ قلت : أبوذر جعلنى الله فداك . قال : تعاله فمشيت معه ساعه فقال : اجلس ههنا فأجلسنى فى قاع حوله حجاره فقال اجلس ههنا حتى أرجع إليك . فانطلق فى الحره حتى لا أراه فلبث عنى فأطال اللبس ثم سمعته وهو مقبل يقول : وإن سرق وإن زنى ، فلما جاء لم أصبرفقلت : يانبى الله جعلنى الله فداك من تكلم فى جانب الحره ماسمعت أحدا يرجع إليك شيئا ؟ قال ذاك جبريل عرض لى فى جانب الحرة فقال أبشر أمتك أن من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة فقلت : ياجبريل وإن سرق أو زنى . قال نعم . قلت وإن سرق أو زنى قال نعم وإن شرب الخمر » (رواه الشيخان)

اللهم وفقنا إلى ماتحبه وترضاه واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هذا أمر خطير تقوم عليه حياة الأمم ، فما من أمة يسودها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا كان السعد رائدها والنصر حليفها وألبسها الله لباس العز والشرف ، وما من أمة تركت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا كان الذل رائدها والخذلان حليفها وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

ولقد تضافرت آيات الكتاب العزيز فى مواضع شتى على أهمية هذه القضية ومن يقرأ وصية لقمان لإبنه يلمح فى ذلك المدى البعيد لأهمية هذا الركن الركين :(يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) .

ومن يقرأ التوجيهات الصارمة إلى الأمة الإسلامية يجد هذا الحصن الحصين شامخ البنيان وطيد الأركان (ياأيها الذين أمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . ياأيها الذين أمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) .

ثم ماذا ؟ (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

ومن يقرأ سورة التوبة يجد أركان المجتمع السليم تقوم على هذه الدعائم (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) .

وهل خيرية هذه الأمة جاءت على سبيل المجاملة ؟ كلا وألف كلا . إن لخيريتها حيثيات لو زالت إحداها انتكست وارتكست وتمرغت فى غياهب الظلمات :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

(الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) .

فإذا تعطلت تلك الأركان عاشت الأمة على أرض النفاق وأظلم جوها واقفهر واقتلعتها عواصف الشر . قال سبحانه (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم) .

وما قبل الله شراء أنفس المؤمنين وأموالهم وأعطاهم الجنة إلا لما اتصفوا بهذه الصفات (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) .

وقد جاءت السنة الشريفة شارحة وموضحة للأمر بالمعروف مبينة درجات الآمرين والناهين : عن طارق بن شهاب رضى الله عنه قال : أول من بدأ بالخطبة قبل الصلاة يوم العيد مروان فقام إليه رجل فقال قد ترك ما هنالك . فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى ما عليه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يأمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » (رواه مسلم فى الإيمان)

وقيل لأسامة بن زيد رضى الله عنهما : ألا تدخل على عثمان فتكلمه فقال أترون إنى لا أكلمه إلا أسمعكم . والله لقد كلمته فيما بينى وبينه ما دون أن أفتح أمرا لا أحب أن أكون أول من فتحه ولا أقول لأحد يكون على أميراً أنه خير الناس إن خير الناس بعد ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتنذلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور بها الحمار بالرحى فيجمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه » .

(رواه الثلاثة)

ولأصحاب السنن « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر » . عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : ياأيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها فى غير مواضعها : « ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : ياهذا اتق الله ودع ما تصنع فإن لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلة وشريبة وقعيدة فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض . ثم قال : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدى الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننكم كما لعنهم » . (رواه أبو داود والترمذى)

عن جرير رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون

على أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب من قبل أن يموتوا » . (رواه أبو داود والترمذى)

عن العرس الكندى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » . (رواه أبو داود)

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا خفيت الخطيئة لا تضر إلا صاحبها وإذا ظهرت فلم تغير ضرت العامة » . (رواه الطبرانى)

عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعون فلا يستجاب لكم » . (رواه الترمذى والطبرانى)

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : بينما نحن حول النبى صلى الله عليه وسلم إذ ذكرت الفتنة فقال « إذا رأيتم الناس قد مرحت عهودهم وخفت أمانتهم وكانوا هكذا وشبك بين أصابعه ، فقمت إليه فقلت : كيف أفعل عند ذلك يارسول الله جعلنى الله فداك . قال : الزم بيتك وأملك عليك لسانك وخذ بما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر خاصة نفسك ودع عنك أمر العامة » . (رواه أبو داود والنسائى) .

ومعنى املك عليك لسانك : أى دع الكلام فى أحوال الناس لئلا يؤذوك ، ومعنى عليك بأمر خاصة نفسك : أى اشتغل بما يخصك لدينك ودنياك » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن خير الناس فقال : آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم .

وعن على كرم الله وجهه : « أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن النمكر ، ومن غضب لله غضب الله له » .

وخطب عمر بن الخطاب على المنبر وكان مما قال : إذا رأيتم فىّ اعوجاجاً فقوموه . فقام أحد رعاة الإبل وقال : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوم عمر بسيفه .

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الذى صان الأمة الإسلامية من الانحراف وحملها على الولاء للمنهج الإسلامى وعدم التحريف للدين والشذوذ الجماعى ، وحفظها من العثرات المردية على طريقها الطويل ورحلتها الشاقة فى ميادين الاجتهاد والاستنباط وإنارة السبيل للسالكين ، وحفظ القادة والزعماء والمفكرين والعلماء من الافتتان بالرأى والاعجاب بالنفس أو من ادعائهم أو ادعاء اتباعهم العصمة لهم. لأن هذه الأمة كانت متمسكة بذلك الأمر التكليفى من الحكيم الخبير : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

وما فتئت هذه الأمة خير الأمم حتى تركت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما تركتهما إلا باستبداد الملوك والأمراء من بنى أمية ومن حذا حذوهم . وأول من اجترأ منهم على إعلان هذه المعصية : عبد الملك بن مروان حين قال على المنبر : من قال اتق الله ضربت عنقه » .

وما زال الشر يزداد والأمر يتفاقم حتى سلبت هذه الأمة أفضل ما لها من مزية فى دينها ودنياها بعد الإيمان وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكان أعظم المعروفات الدين الحق ، والإيمان بالتوحيد والنبوة ، وأنكر المنكرات الكفر بالله .

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الجهاد الأكبر لأنه جهاد النفس البشرية ولما كان فرض الجهاد فى الدين يحمل الإنسان أعظم المضار لإيصال غيره إلى أعظم المنافع وتخليصه من أعظم الشرور ، لهذا كان عبادة من العبادات بل كان أجلها وأعظمها ، وهو فى ديننا الإسلامى أقوى منه فى سائر الأديان . وهذا كان موجباً لفضل هذه الأمة على سائر الأمم ، لكن عندما أنطفأت شعلة الجهاد أو كادت عرف الناس ضعف العالم الإسلامى وخذلانه وهوانه .

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الذى جعل الأمة الإسلامية تسود العالم كله كما أنبأنا العليم الخبير : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

الهم إنا نسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المسكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليك غير فاتنين يانعم المولى ويانعم النصير ، غفرانك ربنا وإليك المصير . اللهم اجعلنا من جنودك المخلصين وانصرنا على أعدائك أعداء الدين .

واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه . وصلى على البشير النذير سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كرامات الأولياء

كثر تساؤل الناس في هذا الزمان عن الكرامات ، هل هي ثابتة في الشرع ؟ هل لها دليل من الكتاب والسنة ؟ ما هي الحكمة من إجرائها على يد الأولياء والمتقين ؟ ... الخ .

وبما أن موجات الالحاد والمادية ، وتيارات التشكيك والتضليل قد كثرت في هذا الوقت ، فأثرت في عقول كثير من أبنائنا ، وأضلت العديد من مثقفينا، وحملتهم على الوقوف من الكرامات موقف المنكر الجاحد أو الشاك المترددأو المستغرب المتعجب نتيجة ضعف إيمانهم بالله وقدرته وقلة تصديقهم بأوليائه وأحبائه .. فلا يسعنا إلا أن نعالج هذا الموضوع إظهاراً للحق ونصرة لشريعة الله تعالى .

❁ إثبات الكرامات :

لقد ثبتت كرامات الأولياء في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفي آثار الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن بعدهم إلى يومنا هذا ، وأقرها جمهور العلماء من أهل السنة والجماعة ، من الفقهاء والمحدثين والأصوليين ومشايخ الصوفية ، وتصانيفهم ناطقة بذلك ، كما ثبتت كذلك بالمشاهدة العيانية في مختلف العصور الإسلامية . فهي ثابتة بالتواتر في المعنى ، وإن كانت التفاصيل آحاداً ، ولم ينكرها إلا أهل البدع والانحراف ممن ضعف إيمانهم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله .

قال العلامة اليافعي رحمه الله تعالى : « والناس في إنكار

الكرامات مختلفون ، فمنهم من ينكر كرامات الأولياء مطلقاً ، وهؤلاء أهل مذهب معروف ، عن التوفيق مصروف ، ومنهم من يكذب بكرامات أولياء زمانه ويصدق بكرامات الأولياء الذين ليسوا فى زمانه كمعروف الكرخى والإمام الجنيد وسهل التسترى وأشباههم رضى الله عنهم .

فهؤلاء كما قال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : والله ما هى إلا إسرائيلية صدقوا بموسى وكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنهم أدركوا زمنه .

ومنهم من يصدق بأن لله تعالى أولياء لهم كرامات ولكن لا يصدق بأحد معين من أهل زمانه .

۞ الدليل عليها من كتاب الله تعالى :

١- قصة أصحاب الكهف وبقائهم فى النوم أحياء سالمين عن الآفات مدة ثلثمائة وتسع سنين ، وأنه تعالى كان يحفظهم من حر الشمس : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تعرضهم ذات الشمال » . إلى أن قال : « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد» إلى أن قال : « ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً » .

٢- هز مريم جزع النخلة اليابس ، فاخضر وتساقط منه الرطب الجنى فى غير أوانه ، قال تعالى : « وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً » .

٣- ما قص الله علينا فى القرآن من أن زكريا عليه السلام كان كلما دخل على مريم المحراب وجد عندها رزقاً ، وكان لا يدخل عليها أحد غيره عليه السلام فيقول : يامريم أنى لك هذا ؟ تقول : هو من عند الله » .

٤- قصة آصف بن برخيا مع سليمان عليه السلام على ما قاله جمهور المفسرين فى قوله تعالى : « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » . فجاء بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين قبل ارتداء الطرف .

◎ الدليل عليها من السنة الصحيحة :

١- قصة جريج العابد الذى كلمة الطفل فى المهد . وهو حديث صحيح أخرجاه فى الصحيحين : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله وسلم قال : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى ، وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال له جريج ، كان يصلى فجاءته أمه ، فدعته ، فقال أجيبها أو أصلى ؟ فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه وجوه الموسات . وكان جريج فى صومعته فتعرضت له امرأة وكلمته ، فأبى ، فأتت راعياً ، فأمكنته من نفسها ، فولدت غلاماً . فقالت : من جريج فأتوه فكسروا صومعته ، وأنزلوه وسبوه ، فتوضأ وصلى ، ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟ فقال : الراعى قالوا : نبنى صومعتك من ذهب ؟ قال : لا < إلا من طين ..» .

٢- قصة الغلام الذى تكلم فى المهد : وهذا تمام الحديث المذكور آنفاً : « ... وكانت امرأة ترضع ابنا لها من بنى إسرائيل ، فمر بها رجل

راكب ذو شارة ، فقالت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ثم أقبل على ثديها يمصه . قال أبو هريرة : كأنى أنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم يمص إصبعه .

ثم مر بأمة ، فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه ، فترك ثديها فقال : اللهم اجعلنى مثلها فقالت : لم ذاك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون : سرقت ، زنت ولم تفعل » . رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب ذكر بنى إسرائيل واللفظ له . ومسلم فى كتاب بر الوالدين .

٣- قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار ، وانفراج الصخرة عنهم بعد أن سدت عليهم الباب وهو حديث متفق عليه : عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول : « انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم ، حتى أووا المبيت إلى الغار ، فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ، فقال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فنأى بى فى طلب شئ يوماً ، فلم أرح عليهما حتى ناما ، ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة . فانفرجت شيئاً لا يستطيعون

الخـروج » . قـال النبى صلى الله عليـه وسلم : « وقـال الآخـر : اللهم إنه كـانت لى بنت عم ، كـانت أحب الناس إلىّ ، فـأردتهـا على نفسـهـا فـامـتنعت منى حـتى ألمت بهـا سنة من السنين فـجـاءتنى ، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسـها ففعلت حتى إذا قدرت عليـها قـالت : لا أحل لك أن تفض الخـاتم إلا بحق ، فـتحـرجت من الوقـوع عليـهـا فـانصـرفت عنهـا وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مـا نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها » . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « وقال الثالث : اللهم استـأجـرت أجراء ، فـأعطيتـهم أجـرهم غيـر رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : يا عبد الله : أد إلىّ أجرى ، فقلت له : كل مـا ترى من أجـرك من الإبل والبـقـر والغنم والرقـيق . فـقـال : يا عـبـد الله لا تستـهزئ بى . فقلت : إنى لا استـهزئ بك . فأخذه كله ، فاستاقه ، فلم يترك منه شيئا . اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فـافرج عنا مـا نحن فيه . فـانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون » . أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب الاجارة واللفظ له ومسلم فى كتاب الذكر .

٤- قصـة البقرة التى كلمت صـاحبـهـا . وهو حديث صـحيح مشـهور : روى سـعـيـد بن المسـيب عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل راكب على بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه البقرة فقالت : إنى لم أخلق لهذا وإنما خلقت للحرث ، فقال الناس : سبحان الله بقرة تتكلم ! فقال النبى صلى الله عليه

وسلم : آمنت بهـذا أنا وأبو بكر وعـمـر » . (رواه البـخـارى فى صحيحه) فى كتاب المزارعة ، ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة ، والترمذى فى كتاب المناقب .

الدليل عليها من آثار الصحابة : وقد نقل عنهم الكرامات الشئ الكثير سنحاول ذكر بعض منها بعون الله :

١- قصة أبى بكر رضى الله عنه مع أضيـاقه فى تكثير الطعام ، حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان وهو حديث صحيح فى البخارى : أخرج البخارى أن أبا بكر كان عنده أضياف ، فقدم لهم الطعام فلما أكلوا منه ربا من أسفله حتى إذا شبعوا قال لامرأته : « ياأخت بنى فراس ما هذا ؟ قالت : وقرة عينى لهى [تعنى القصعة] أكثر منها قبل أن يأكلوا .. إلى آخر القصة .

٢- قصة عمر رضى الله عنه ، وهو على منبر المدينة ينادى بقائده : يا سارية الجبل ! وهو حديث حسن : قال التاج السبكى رحمه الله تعالى : « كان عمر رضى الله عنه قد أمر سارية بن زنيم الخلجى على جيش من جيوش المسلمين ، وجهزه على بلاد فارس ، فاشتد على عسكره الحال على باب نهاوند وهو يحاصرها ، وكثرت جموع الأعداء ، وكاد المسلمون ينهزمون وعمر رضى الله عنه بالمدينة ، فصعد المنبر وخطب ، ثم استغاث فى أثناء خطبته بأعلى صوته : [ياسارية الجبل . من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم] فأسمع الله تعالى سارية وجيشه أجمعين وهم على باب نهاوند صوت عمر ، فلجأوا إلى الجبل ، وقالوا هذا صوت أمير المؤمنين فنجوا وانتصروا » .

٣- قصة عثمان رضى الله عنه مع الرجل الذى دخل عليه ، فأخبره عما أحدث فى طريقة من نظرة إلى المرأة الأجنبية : ذكر التاج السبكى رحمه الله تعالى فى الطبقات وغيره : أنه دخل على عثمان رضى الله عنه رجل كان قد لقى امرأة فى الطريق فتأملها ، فقال له عثمان رضى الله عنه : يدخل أحدكم وفى عينيه أثر زنا ، فقال الرجل : أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : ولكنها فراسة المؤمن » . وإنما أظهر عثمان هذا تأديباً للرجل وزجراً له عن شئ فعله .

٤- سماع على بن أبى طالب رضى الله عنه كلام الموتى : أخرج البيهقى عن سعيد بن المسيب قال : « دخلنا مقابر المدينة مع على رضى الله عنه فنادى : يا أهل القبور السلام عليكم ورحمة الله تخبرونا بأخباركم أم نخبركم ؟ قال : فسمعنا صوتاً : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا أمير المؤمنين ، خبرنا عما كان بعدنا . فقال على : أما أزواجكم فقد تزوجن ، وأما أموالكم فقد اقتسمت ، والأولاد قد حشروا فى زمرة اليتامى ، والبناء الذى شيدتم فقد سكنه أعداؤكم ، فهذه أخبار ما عندنا ، فما أخبار ما عندكم ؟ فأجابه ميت : قد تخرقت الأكفان وانتثرت الشعور وتقطعت الجلود ، وسالت الأحداق على الخدود ، وسالت المناخر بالقيح والصديد ، وما قدمناه وجدناه وما خلفناه خسرناه ونحن مرتهنون » .

هذا وللحديث بقية أدعو الله أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه إنه سميع مجيب الدعوات .

⊙ الدليل عليها من آثار الصحابة (تابع) :

٥- قصة عباد بن بشر وأسيد بن حضير رضى الله عنهما اللذين أضاءت لهما عصا أحدهما خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة مظلمة وهو حديث صحيح أخرجه البخارى : أخرج الحاكم فى كتاب معرفة الصحابة وصححه البيهقى وأبو نعيم وابن سعد ، وهو فى البخارى من غير تسمية الرجلين : « أن أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضى الله عنهما كانا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة حتى ذهب من الليل ساعة وهى ليلة شديدة الظلمة ، خرجا وبيد كل واحد منهما عصا فأضاءت لهما فمشيا فى ضوئها ، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه ، فمشى كل واحد منهما فى ضوء عصاه حتى بلغ أهله » .

٦- قصة خبيب رضى الله عنه فى قطف العنب الذى وجد فى يده يأكله فى غير أوانه وهو حديث صحيح : أخرجه البخارى فى صحيحه فى باب غزوة الرجيع عن أبى هريرة رضى الله عنه أن خبيباً كان أسيراً عند بنى الحارث بمكة . فى قصة طويلة ، وفيها أن بنت الحارث كانت تقول : ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قطف العنب ، وما بمكة يومئذ ثمرة وإنه لموثق فى الحديد ، وما كان إلا رزقه الله » .

٧- قصة سعد وسعيد رضى الله عنهما ، وهى أن كلا منهما دعا على من كذب عليه ، فاستجيب له . (أخرجه البخارى ومسلم) .

الأول منهما : سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، فقد أخرج الشيخان والبيهقى عن طريق عبد الملك بن عمير عن جابر رضى الله

عنه قال : شكا ناس من أهل الكوفة سعد بن أبى وقاص إلى عمر فبعث معه من يسأل عنه بالكوفة ، فطيف به فى مساجد الكوفة ، فلم يقل له إلا خير حتى انتهى إلى مسجد ، فقال رجل يدعى أبا سعدة : أما إذا أنشدتنا فإن سعدا كان لا يقسم بالسوية ولا يسير بالسرية ولا يعدل فى القضية ، فقال سعد : اللهم إن كان كاذباً فأطل فى عمره ، وأطل فقره وعرضه للفتن ، قال ابن عمير : فرأيته شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وقد افتقر يتعرض للجوارى فى الطريق يغمزهن ، فإذا قيل له : كيف أنت ؟ يقول شيخ كبير مفتون أصابتنى دعوة سعد .

والثانى : سعيد بن زيد رضى الله عنه . فقد أخرج مسلم فى كتاب المساقاه عن عروة بن الزبير رضى الله عنه : « أن أروى بنت أويس ادعت على سعيد ابن زيد أنه أخذ شيئاً من أرضها فخاصمته إلى مروان بن الحكم ، فقال سعيد : أنا كنت آخذ من أرضها شيئاً بعد الذى سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : وما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أخذ شبراً من الأرض ظلماً طوقه إلى سبع أرضين » فقال له مروان : لا أسألك بينه بعد هذا . فقال : اللهم إن كانت كاذبة فعم بصرها واقتلها فى أرضها ، قال : فما ماتت حتى ذهب بصرها ، ثم بينا هى تمشى فى أرضها إذ وقعت فى حفرة فماتت » .

٨- قصة عبور العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه البحر على فرسه ونبع الماء بدعائه أخرجه ابن سعد فى الطبقات : كان أبو هريرة يقول : « رأيت من العلاء بن الحضرمى ثلاثة أشياء لا ازال أحبه

ابداً ، رأيته قطع البحر على فرسه يوم دارين ، وقدم من المدينة يريد البحرين ، فلما كانوا بالدهناء نفذ ماؤهم فدعا الله فنبع لهم من تحت رجله فارتووا وارتحلوا ، وأنسى رجل منهم بعض متاعه فرجع فأخذه ولم يجد الماء . وخرجت معه من البحرين إلى صف البصرة فلما كنا بلياس مات ونحن على غير ماء ، فأبدى الله لنا سحابة فمطرنا فغسلناه وحفرنا له بسيوفنا ولم نلحد له ، فرجعنا لنلحد له فلم نجد موضع قبره » .

٩- قصة خالد بن الوليد رضى الله عنه فى شربة السم . أخرجه البيهقى وأبو نعيم والطبراني وابن سعد باسناد صحيح : « نزل خالد بن الوليد الحيرة ، فقالوا له : احذر السم لا تسقيكه الأعاجم فقال : ائتوني به ، فأخذه بيده وقال بسم الله وشربه فلم يضره شيئاً » .

١٠- إضاءه أصابع حمزة الأسلمى رضى الله عنه فى ليلة مظلمة : أخرج البخارى فى التاريخ عن حمزة الأسلمى رضى الله عنه قال : « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفره ، فتفرقنا فى ليلة ظلماء ، فأضاءت أصابعى حتى جمعوا ظهرهم وما هلك منه وإن أصابعى لتنير » .

١١- قصة أم أيمن وكيف عطشت فى طريق هجرتها ، فنزل عليها دلو من السماء فشربت رواه أبو نعيم فى الحلية .عن عثمان بن القاسم قال : « خرجت أم أيمن مهاجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة وهى ماشية ليس معها زاد وهى صائمة فى يوم شديد الحر ، فأصابها عطش شديد حتى كادت أن تموت

من شدة العطش ، قال : وهى بالروحاء أو قريباً منها ، فلما غابت الشمس قالت : إذا أنا بحفيف شئ فوق رأسى ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بدلو من السماء مدلى برشاء أبيض ، قالت : فدنا منى حتى إذا كان حيث أستمكن منه تناولته فشربت منه حتى رويت ، قالت : فلقد كنت بعد ذلك اليوم الحار أطوف فى الشمس كى أعطش وما عطشت بعدها .

١٢- تسبيح القصعة التى أكل منها سلمان الفارسى وأبو الدرداء رضى الله عنهما وسماعهما التسبيح : أخرج البيهقى وأبو نعيم عن قيس قال : « بينما أبو الدرداء وسلمان يأكلان من صحفة إذ سبحت وما فيها » .

١٣- سماع بعض الصحابة سورة الملك من قبر بعد أن ضرب خباء فوقه : رواه الترمذى .عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ضرب بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خباءة على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا فيه إنسان يقرأ سورة تبارك الذى بيده الملك حتى ختمها فأتى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال يارسول الله : إنى ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا فيه إنسان يقرأ سورة تبارك الذى بيده الملك حتى ختمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هى المانعة ، هى المنجية تنجيه من عذاب القبر » .

١٤- قصة سفينة رضى الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الاسد اخرجه الحاكم فى المستدرك وأبو نعيم فى الحلية : عن محمد بن المنكدر ان سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : ركبت البحر فانكسرت السفينة التى كنت فيها ، فركبت لوحاً من ألواحها ، فطرحنى اللوح فى أجمة فيها الأسد ، فأقبل إلى يريدنى ، فقلت : يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطأطأ رأسه وأقبل إلى ، فدفعنى بمنكبه حتى أخرجنى من الأجمة ووضعنى على الطريق ، وهمهم فظننت أنه يودعنى ، وكان ذلك آخر عهدى به » .

هذا غيض من فيض ، وقليل من كثير مما ورد عن كرامات صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم توالى ورود الكرامات الكثيرة على يد الأولياء فى عهد التابعين وتابعى التابعين إلى يومنا هذا ، مما يصعب عده ويضيق حصره . وقد ألف العلماء فى ذلك مجلدات كثيرة وصنف أكابر الأئمة منهم مصنفات فى اثبات الكرامة للأولياء وصار ذلك علماً قوياً يقينياً ثابتاً لا تتطرق إليه الشكوك أو الشبهات .

قال العلامة التاج السبكى فى الطبقات الكبرى : للكرامة أنواع :

النوع الأول : ١- إحياء الموتى

٢- كلام الموتى

٣- المشى على الماء

٤- انقلاب الأعيان

٥- انزواء الأرض

٦- كلام الحيوانات والجمادات

٧- إبراء العلل

٨- طاعة الحيوان

٩- طى الزمان

١٠- نشر الزمان

١١- إمساك اللسان عن الكلام وانطلاقه ...

إلى أن عد خمسة وعشرين نوعاً وذكر لكل نوع مثالاً وحكاية جرت للعلماء ومشايخ الصوفية ، فراجعه هناك تجده مفصلاً .

وقد يتسائل بعضهم : لماذا كانت كرامات الصحابة على كثرتها أقل من كرامات الأولياء الذين جاءوا بعد عصر الصحابة ؟! ..

ويجيب على ذلك تاج الدين السبكي في الطبقات بقوله : « الجواب : ماأجاب به الإمام الجليل أحمد بن حنبل رضي الله عنه حين سئل عن ذلك ، فقال : أولئك كان إيمانهم قوياً ، فما احتاجوا إلى زيادة شئ يقوون به ، وغيرهم كان إيمانهم ضعيفاً لم يبلغوا إيمان أولئك فقووا باظهار الكرامات لهم » .

❁الحكمة من إجراء الكرامات على يد الأولياء :

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكرم أحبابه وأولياءه بأنواع من خوارق العادات تكريماً لهم على ايمانهم وإخلاصهم ، وتأييدا لهم في جهادهم ونصرتهم لدين الله ، وإظهاراً لقدرة الله تعالى ، ليزداد الذين أمنوا إيماناً ، وبياناً للناس أن القوانين الطبيعية والنواميس الكونية إنما هي من صنع الله وتقديره ، وأن الأسباب لا تؤثر بذاتها ، بل الله تعالى يخلق النتائج عند الأسباب لا بها كما هو مذهب أهل السنة والجماعة .

وقد يقول معترض : إن تأييد الحق ونشر دين الله لا يكون بخوارق العادات ، بل يكون بإقامة الدليل المنطقي والبرهان العقلي .

فنقول : نعم لا بد من نشر تعاليم الإسلام بتأييد العقل السليم والمنطق الصحيح والحجة الدامغة ، ولكن التعصب والعناد يدعوان إلى أن تخرق العادات بالكرامات كما اقتضت حكمة الله أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات إظهارا لصدقهم ، وتأييدا لهم فى دعوتهم ، وحملا للعقول المتحجرة والقلوب المقفلة أن تخرج من جمودها وتتحررمن تعصبها ، فتفكر تفكيراً سليماً مستقيماً يوصلها إلى الإيمان الراسخ واليقين الجازم .

ومن هنا يظهر أن الكرامة والمعجزة تلتقيان فى بعض الحكم والمقاصد إلا أن الفارق بينهما أن المعجزة لا تكون إلا للأنبياء عليهم السلام ، والكرامة لا تكون إلا للأولياء ، وكل كرامة لولى معجزة لنبى » .

ما هو الفرق بين الكرامة والاستدراج ؟ هذا ما سنحاول توضيحه فى المقال القادم إن شاء الله وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين .

⊛ الفرق بين الكرامة والاستدراج :

لابد من التنبيه إلى الفرق بين الكرامة والاستدراج ، وذلك لأننا نشاهد بعض الفسقة المنسوبين للإسلام تجرى على يديهم خوارق العادات مع أنهم مجاهرون بالمعصية ، منحرفون عن دين الله تعالى ، فالكرامة لا تكون إلا على يد ولى ، وهو صاحب العقيدة الصحيحة المواظب على الطاعات ، المتجنب للمعاصى ، المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات ، وهو الذى قال الله تعالى فيه : « ألا أن أولياء الله لا

خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون » . وأما ما يجرى على يد الزنادقة والفسقة من الخوارق كطعن الجسم بالسيف وأكل النار والزجاج وغير ذلك ، فهو من قبيل الاستدراج .

ثم إن الولى لا يسكن إلى الكرامة ، ولا يتفاخر بها على غيره . قال العلامة فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير : « إن صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى اشد وحذره من قهر الله اقوى ، فإنه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج .

وأما صاحب الاستدراج فإنه يستأنس بذلك الذى يظهر عليه ، ويظن أنه إنما وجد تلك الكرامة لأنه كان مستحقاً لها ، وحينئذ يحتقر غيره ويتكبر عليه ، ويحصل له أمن من مكر الله وعقابه ، ولا يخاف سوء العاقبة ، فإذا ظهر شئ من هذه الأحوال على صاحب الكرامة دل ذلك على أنها كانت استدراجاً لا كرامة ، فلهذا قال المحققون : « أكثر ما اتفق من الانقطاع عن حضرة الله إنما وقع فى مقام الكرامات ، فلا جرم أن ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أنواع البلاء ، والذى يدل على أن الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه » ثم ذكرها حتى عد إحدى عشرة حجة نذكر منها واحدة .

قال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى : « إن من اعتقد فى نفسه أنه صار مستحقاً للكرامة بسبب عمله ، حصل لعمله وقع عظيم فى قلبه ، ومن كان لعمله وقع عنده كان جاهلاً ولوعرف ربه لعلم أن كل طاعات الخلق فى جنب جلال الله تقصير ، وكل شكرهم فى جنب آلائه ونعمائه قصور . وكل معارفهم وعلومهم فى مقابلة عزته حيرة وجهل ،

رأيت فى بعض الكتب أنه قرأ المقرئ فى مجلسى الأستاذ ابى على الدقاق قوله تعالى : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . فقال علامة أن الحق رفع عملك أن لا يبقى عندك « أى عملك فإن بقى عملك فى نظرك فهو مدفوع ، وإن لم يبق معك فهو مرفوع » .

وعلى هذا فإننا حين نرى أحدا من الناس يأتى بخوارق العادات لا نستطيع أن نحكم عليه بالولاية ولا يمكن أن نعتبر عمله هذا كرامة حتى نرى سلوكه وتمسكه بشريعة الله . قال أبو زيد رحمه الله تعالى : « لو أن رجلا بسط مصلاة على الماء وتربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى »

❁موقف الصوفية من الكرامات :

إن بعض المنحرفين على الصوفية يدعى أن مقصد الصوفية من سيرهم هو الوصول إلى الكرامات وهم فى هذا انما يترجمون عما فى نفوسهم من أمراض خبيثة وعلل دفينة ، مع أننا نرى الصوفية يهتمون بتزكية النفس وتخليصها من صفاتها المذمومة كالرياء والنفاق وتحليتها بالصفات العالية وأن يكون سيره معهم بعيداً عن العلل والغايات وألا يبتغى إلا وجه الله تعالى ورضاه ، كما نراهم يسترون من الكرامة بعدا عن شبهة الرياء .

قال الشيخ أبو عبد الله القرشى رحمه الله تعالى : « من لم يكن كارها لظهور الآيات وخوارق العادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصى فهو فى حقه حجاب ، وسترها عليه رحمة فإن من خرق عوائد نفسه لا يريد ظهور شئ من الآيات وخوارق العادات له ، بل تكون نفسه عنده أقل واحقر من ذلك فإذا افنى عن ارادته جملة فكان له تحققه فى رؤية

نفسه بعين الحقارة والذلة حصلت له أهلية ورود الألطاف والتحقق بمراتب الصديقين » .

وقال علي الخواص رحمه الله تعالى : « الكمّل يخافون من وقوع الكرامات على أيديهم ، ويزدادون بها وجلاً وخوفاً لاحتمال أن تكون استدراجاً » .

ثم إن الصوفية يمنعون إظهار الكرامة إلا لغرض صحيح ، كنصرة شريعة الله أمام الكافرين والمعاندين وكابطال سحر الكافرين والضالين أو الفسقة المشعوذين الذين يريدون أن يضلوا الناس عن دينهم ويشككوهم في عقائدهم وإيمانهم . أما إظهارها بدون سبب مشروع فهو مذموم لما فيه من حظ النفس والمفاخرة والعجب .

قال الشيخ محي الدين رحمه الله تعالى : « ولا يخفى أن الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس ، إلا إن كانت لنصر دين أو جلب مصلحة لأن الله تعالى هو الفاعل عندهم . لا هم ، هذا مشهدهم ، وليس وجد الخصوصية إلا وقوع ذلك الفعل الخارق على يدهم دون غيرهم ، فإذا أحيا كبشاً مثلاً أو دجاجة فإنما ذلك بقدرة الله لا بقدرتهم ، وإذا رجع الأمر إلى القدرة فلا تعجب » .

ثم إن الصوفية يعتبرون أن أعظم الكرامات هي الاستقامة على شرع الله تعالى . قال أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في رسالته : « وأعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات والحفظ من المعاصي والمخالفات » .

وذكر عند سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى الكرامات

فقال : « وما الآيات وما الكرامات ؟! أشياء تنقضى لو قتها ، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود » .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله تعالى : « الكرامة الحقيقية إنما هى حصول الاستقامة والوصول إلى كمالها . ومرجعها أمران : صحة الإيمان بالله عزّ وجل ، واتباع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً ، فالواجب على العبد أن لا يحرص إلا عليهما ، ولا تكون له همة إلا فى الوصول إليهما . وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة بها عند المحققين ، إذ قد يرزق بها من لم تكتمل استقامته وقد يرزق بها المستدرجون » .

وقال : « إنما هى كرامتان جامعتان محيطتان ؛ كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة ، فمن أعيطهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب ، ليس ذا حظ فى العلم والعمل بالصواب كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا » .

وقال الشيخ محى الدين بن عربى رحمه الله تعالى : « واعلم أن الكرامة على قسمين : حسية ومعنوية ، ولا تعرف العامة إلا الحسية مثل الكلام على الخاطر ، والإخبار بالمغيبات الماضية والكائنة والآتية ، والأخذ من الكون ، والمشى على الماء ، واختراق الهواء ، وطى الأرض والاحتجاب عن الأبصار ، وإجابة الدعاء فى الحال ونحو ذلك . فالعامة لا تعرف من الكرامات إلا مثل هذا . وأما الكرامة المعنوية فلا يعرفها إلا الخواص من عباد الله تعالى ، والعامة لا تعرف ذلك وهى أن يحفظ على

العبد آداب الشريعة وأن يوفق لفعل مكارم الأخلاق واجتناب سفاسفها ، والمحافظة على أداء الواجبات مطلقاً فى أوقاتها والمسارعة إلى الخيرات وإزالة الغل والحقد من صدره للناس والحسد وسوء الظن وطهارة القلب من كل صفة مذمومة ، وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس ، ومراعاة حقوق الله تعالى فى نفسه وفى الاشياء وتفقد آثار ربه فى قلبه ومراعاة انفاسه فى دخولها وخروجها فيتلقاها بالأدب إذا وردت عليه ويخرجها وعليها حلة الحضور مع الله تعالى ، فهذه كلها عندنا كرامات الأولياء المعنوية التى لا يدخلها مكر ولا استدراج » .

ثم أن السادة الصوفية لا يعتبرون ظهور الكرامات على يد الولى الصالح دليلاً على أفضليته على غيره . قال الإمام اليافعى رحمه الله تعالى : « لا يلزم أن يكون كل من له كرامة من الأولياء أفضل من كل من ليس له كرامة منهم ، بل قد يكون بعض من ليس له كرامة منهم أفضل من بعض من له كرامة ، لأن الكرامة قد تكون لتقوية يقين صاحبها ، ودليلاً على صدقه وعلى فضله لا على أفضليته ، وإنما الأفضلية تكون بقوة اليقين وكمال المعرفة بالله تعالى » .

كما أن الصوفية يعتبرون أن عدم ظهور الكرامة على يد الولى الصالح ليس دليلاً على عدم ولايته .

قال الأمام القشيرى رحمه الله تعالى فى رسالته : « لو لم يكن للولى كرامة ظاهرة عليه فى الدنيا لم يقدح عدمها فى كونه ولياً » . وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى فى شرحه لرسالة القشيرى عند هذا الكلام : « بل قد يكون أفضل ممن ظهر له كرامات ، لأن الأفضلية إنما هى بزيادة اليقين لا بظهور الكرامة » .

شريعة العدل والرحمة

« ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه »

ما أشد حاجة البشرية إلى الإسلام الذى يناشد القلوب جمعاء، وينادى على النفوس بحزم وصرامة أن تلتزم جانب الله فتعدل فى جميع أمورها . وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا» .

وتبلغ درجة العدل فى الإسلام أنه ينهى عن ظلم الأعداء ، وأن دعوة المظلوم لها خطرها ولوكانت من كافر . فقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « اتق دعوة المظلوم ، ولو كافرا فعلية كفره » .

وقرر القرآن الكريم العدالة ، ولو كان الخصم على غير شريعة الله : قال سبحانه فى صورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا كونو قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

ولمكانة العدل فى الإسلام قال الإمام على كرم الله وجهه : بنى الإسلام على أربع دعائم : اليقين والصبر والعدل والجهاد .

وما أجل أثر هذه الآية الكريمة الجامعة : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى .. إلى آخر الآية » .

وقد خاطب الله كل من ولى أمراً من أمور المسلمين بهذا الخطاب الصريح فى دلالته فقال سبحانه : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تكلم عن المسئولية وزعها توزيعاً عادلاً : عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : فالإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

◎ حرمة الدماء فى الإسلام :

إن من أعظم الأشياء حرمة فى شريعة الله تعالى لتحقيق العدل والرحمة : حرمة الدماء . ولذلك جاء الوعيد والتهديد شديداً لمن اعتدى على دماء الناس ، فقد قال سبحانه : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنة ، وأعدله عذاباً عظيماً » . وجاء عن رسوله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » . وبلغ من تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من الاعتداء على الدماء أنه قال : « الآدمى بنيان الرب ، ملعون من هدمه » . وقال : من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة ، جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه : آيس من رحمة الله » . وقد أمر الله تعالى بالتبين عندما يريد المسلمون أن يضربوا فى الأرض ، حتى لا يعتدوا على أحد ظلماً وعدواناً ، فقال سبحانه : ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام

لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة » .

❂ حرمة المال فى الإسلام :

وإذا كانت هذه حرمة الدماء ، فإن حرمة المال لا تقل عنها خطراً ، يقول سبحانه وتعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » .

ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر فيقول : ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » . ويسمى المال الحرام خبيثاً فيقول : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله ياأولى الألباب لعلكم تفلحون » .

التحذير من أكل مال اليتيم : ويخص بالذكر مال اليتامى نظراً لما له من حساسية خاصة ، فيقول جل شأنه : « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوباً كبيراً » . ويرشد الوصى على مال اليتيم إذا قضى لليتيم حاجة فى سبيل إنماء ماله ، فيقول سبحانه : « وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً » ثم يقول : « فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » . ثم يبين العاقبة الوخيمة والمآل السئ لأكله مال اليتيم فيقول جل شأنه : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيرا »

وإذا كان الحرام خبيثاً ، فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم

عاقبة أصحاب هذا الخبيث فقال : « إن رجالا يتخوضون فى مال الله بغير حق ، فلهم النار يوم القيامة » . (رواه البخارى) .

وهذا رجل يسمى « ابن التبية » يستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم على الصدقة ، فلما قدم قال : هذا لكم ، وهذا أهدى إلى ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد : فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله ، فيأتى فيقول هذا لكم ، وهذا هدية أهديت إلى ، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً ؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حق إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه ، فقال : اللهم هل بلغت » متفق عليه .

وهكذا يغلق الإسلام باب الرشوة التى تقدم للموظف باسم الهدية أو بأى اسم آخر ، ولكنها فى الحقيقة الرشوة بأدق معانيها .. إذا أنه يتقاضى على عمله مرتباً وأجراً معلوماً .

رد المظالم إلى أهلها : كذلك يحذر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك من إضاعة المظالم ، فيأمر بالمبادرة بأدائها قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة فيقول : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شئ فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » . (رواه البخارى).

وهذا نموذج آخر من نماذج حرمة المال : عن عبد الله بن عمرو بن

العاص رضى الله عنهما قال : كان على نفل النبى صلى الله عليه وسلم رجل يقال له «كركرة » فقتل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو فى النار» فذهبوا ينظرون إليه ، فوجدو عباءة قد غلها » (رواه البخارى) . ومعنى غلها : أى خان المسلمين فأخذها على سبيل الغلول ، وهو خيانة مال الغنيمة .

أخا الإسلام : لا تحقرن من الظلم شيئاً ، ولو كان قليلاً ، ما دام أخذه على غير وجه حق ، فقد روى أبو أمامة إياس بن ثعلبة الحارثى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من اقتطع من حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة ، فقال رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ فقال : وإن كان قضيباً من أراك » (رواه مسلم) .

◎ من المفلس ؟

بعد هذا الطواف الشامل حول شريعة العدل والرحمة نأتى إلى الحديث الذى سأل الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أصحابه عن المفلس : من هو ؟ ... وفى هذا الحديث معيار دقيق وميزان صادق للإفلاس من العمل الصالح ، وهو يصور موقف المفلسين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم . ولنستمع إلى السؤال نفسه من سيد الخلق ، والإجابة عليه من الصحابة ، وبيان الجواب الحقيقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف

هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه : أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار » رواه مسلم .

من أجل ذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يناشد النفس البشرية الضمير اليقظ والإحساس المرهف ، وينادى على القلب الذى يحس عظمة الله تعالى ويخشى سلطانه ، فيقول للخصوم الذين يطالب كل منهم بحقه ، يقول لهم هذا الدرس الواعى البصير : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار » . متفق عليه . ألحن أى أعلم .

صلى عليك الله يا علم الهدى فأنت النعمة المسداة ، والرحمة المهداة لأنك جئت بشريعة العدل والرحمة

نماذج من أفذاذ الرجال

❂ أبو حازم :

ها نحن نقدم بين يدى القارئ أحد علماء الحق الذين دخلوا التاريخ من أشرف أبوابه وأنصعها وأنقاها وأطهرها . إنه « أبو حازم » ولنترك المؤرخين يحدثوننا عنه ولننصت ألى هده المواقف التى إن دلت على شئ فإنما تدل على أن قلب صاحبها عامر يحب الله فمن خاف الله خوف الله منه جميع خلقه ومن لم يخف الله خوفه الله من جميع خلقه ومن أرضى الله باسخاط الناس كفاه الله ما بين الناس ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ومن تزين للناس بما يعلم الله من خلاف ذلك هتك الله ستره وأبدى فعله فاللهم اغننا بالفقر إليك ولا تفقرنا بالاستغناء عنك .

لما دخل سليمان بن عبد الملك مكة حاجا قال : هل بها رجل أدرك عدة من الصحابة ؟ قالوا : نعم أبو حازم فأرسل إليه فلما أتاه قال : يا أباحازم ماهذا الجفاء ؟ قال : والله ما عرفتنى قبل هذا ولا أنا رأيتك فأى جفاء رأيت منى ؟ فالتفت سليمان إلى الزهرى قائلا : أصاب الشيخ وأخطأت أنا يا أباحازم مالنا نكره الموت ؟ فقال : عمرتم الدنيا وخربتم الآخره فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب . قال : صدقت . فقال : يا أباحازم ليت شعرى مالنا عند الله تعالى غدا ؟ قال : أعرض عملك على كتاب الله عز وجل . قال : وأين أجده من كتاب الله تعالى ؟ قال : قال الله تعالى : « إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم »

قال سليمان : فأين رحمه الله ؟ قال أبوحازم : إن رحمة الله قريب من

المحسنين .

قال سليمان : متى تذكرنا يا أباحازم . قال له : يوم ننسى الله .

قال سليمان : من شر الناس يا أباحازم . قال : من باع آخرته بدنياه .

قال : فمن شر منه ؟ قال : من باع آخرته بدنيا غيره .

قال له : فما أطيب الطيبات ؟ قال : العافية . قال فما أمر المرارت .

قال : الحاجه إلى الناس .

قال : وأى شئ أثقل من السماوات والأرض ؟ قال : تهمه المظلوم. قال : سليمان ليت شعرى كيف العرض على الله غدا ؟ قال أبوحازم : أما المحسن كالغائب يقدم على أهله وأما المسئ كالعبد الآبق يقدم به على مولاه . فبكى سليمان واشتد بكاؤه ثم قال : يا أباحازم كيف لنا أن نصلح ؟ قال : تدعون عنكم الصلف (الكبر) وتتمسكون بالمروءة وتعدلون .

قال : يا أباحازم وكيف المأخذ من ذلك ؟ قال : تأخذه بحق وتضعه بحق في أهله .

قال : ما أعدل العدل ؟ قال : كلمه صدق عند من ترجوه وتخافه .

قال : فما أفضل الصدقة ؟ قال : جهد المقل إلى يد البائس الفقير لايتبعها من ولاأذى .

قال : ماأسرع الدعاء إجابتة ؟ قال : دعاء المحسن للمحسنين .

قال : يا أباحازم من أكيس الناس ؟ قال : رجل ظفر بطاعة الله تعالى ثم دل الناس عليها . قال : يا اباحازم هل لك ان تصحبنا وتصيب منا ونصيب منك : قال كلا ولم ؟ قال : إنى أخاف أن أركن إليكم قليلا فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا يكون لى منه نصير.. قال : يا اباحازم ارفع الى حاجتك قال : نعم تدخلنى الجنة وتخرجنى من النار قال : ليس ذلك الى قال : فمالى حاجة سواها . قال : يا اباحازم اوصنى قال : نعم سوف أوصيك واوجز نزه الله تعالى وعظمه ان يراك حيث نهاك او يفقدك حيث امرك ثم قام فقال سليمان : ياأباحازم هذه مائة دينار أنفقها ولك عندى أمثالها كثير . فرمى بها وقال : والله ما أرضاها لك فكيف أرضاها لنفسى ؟

إنى أعزيك بالله أن يكون سؤالك إياى هزلا وردى عليك بذلا !! إن كانت هذه المائة دينار عوضا عما حدثتك ، فالميتة والدم ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحل منه وإن كانت من مال المسلمين ، فلا حاجه لى فيها ، إن بنى أسرائيل لم يزالوا على الهدى والتقى، حتى كان أمراؤهم يأتون إلى علمائهم رغبة فى علمهم فلما نكسوا وسقطوا من عين الله تعالى ، وآمنوا بالجبت والطاغوت كان علماؤهم يأتون إلى أمرائهم ويشاركونهم فى دنياهم .

۞ سعيد بن المسيب :

إنه من العلماء الذين عرفوا الله فعرفهم الله وأحبهم الله فأحبوه .

يرسل إليه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يخطب ابنته الرباب بنت سعيد لابنه وولى عهده الوليد بن الملك . فيدخل مندوب عبد الملك ، هشام

بن اسماعيل على سعيد وهو يلقى العلم فى مسجد الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه . فلما فرغ سعيد من درسه انتحى به هشام جانبا ، وعرض عليه ما أمره به عبد الملك وبين نور الوعد ونيران الوعيد أخذ هشام يصول ويجول ويتوهج ويتأجج ويرغي ويزبد ، جعل لسعيد الأرض خضراء إن هو أجاب كما جعلها نارا تلظى إن هو رفض وأبى . وأخيرا رفع سعيد رأسه ونظر إليه وقال له : أبلغ عبد الملك أننى لا أقبل أن تصير ابنتى زوجه لابنه فأتى معها يوم القيامة مسلسلين إلى نار جهنم . وألح هشام فى العرض والإغراء وأصر سعيد على الرفض والإباء وقال له : ماعليك إلا البلاغ . وتوجه سعيد إلى بيته فوجد ابنته تقرأ القرآن . قال : يا ابنتى كيف حالك مع كتاب الله ؟ قالت : يا أبتى وقفت عند قوله تعالى « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » لقد عرفت حسنه الآخرة وهى الجنه فما حسنة الدنيا ؟ . قال لها يا رباب : حسنة الدنيا الزوجة الصالحة للرجل الصالح والرجل الصالح للزوجة الصالحة . فماذا حدث ؟ اسمع إلى ماحدث إنه عجيب ومهيب وعظيم ورهيب وجليل . عن عبد الله بن أبى وداعة قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفقدنى أياما فلما أتيتة قال : أين كنت ؟ قلت توفيت أهلى فاشتغلت بها قال هلا أخبرتنا فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم فقال : هل استحدثت امرأة ؟

فقلت يرحمك الله تعالى ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثا !

فقال : أنا . قلت : وتفعل ؟ قال نعم . فحمد الله تعالى ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وزوجنى على درهمين أو قال ثلاثه . قال :

فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح . فعدت إلى منزلى وجعلت أفكر ممن آخذ ، وممن أستدين ، فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلى فأسرجت وكنت صائما ، فقدمت عشائى لأفطر . وكان خبزا وزيتا وإذا بأبى يقرع فقلت : من هذا ؟ قال سعيد . قال : تفكرت فى كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب وذلك أنه لم يمر أربعين سنة إلا بين داره والمسجد . فخرجت إليه ، فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه بداله (أى رجع عن رأيه) فقلت : يا أبامحمد لو أرسلت إلى لأتيتك ، فقال : لا أنت أحق أن تؤتى . فقلت : ماذا تأمر . قال : إنك كنت رجلا عزبا فتزوجت فكرهت أن تبيت الليله وحدك وهذه امرأتك وإذا هى قائمة خلفه فى طوله فدفعها فى الباب ورده . وقال : ثم دخلت بها فإذا هى أجمل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج .

وجاء اليوم الذى تولى فيه الوليد أمور المسلمين وأصبح أميرا للمؤمنين . وذات يوم سافر الوليد إلى المدينة المنورة وكان على إمرتها عمر بن عبد العزيز ودخل الوليد وعمر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيه سعيد بن المسيب فألقى الوليد على سعيد السلام فرد سعيد السلام وهو جالس . قال الوليد لعمر أرأيت إلى الرجل يرد السلام وهوجالس قال له عمر : لعله لم يعرفك فدنا الوليد منه وقال السلام عليك يا سعيد ورحمة الله أنا الوليد بن عبد الملك ومد يده إلى سعيد مصافحا ، فصافحه سعيد وهو قاعد وقال : إنما يقوم الناس لرب العالمين .. فقال الوليد لعمر: أتره لم يعرفنى بعد ذلك ياعمر إن سعيدا رجل خاف الله فخوف الله منه جميع خلقه وانصرف .

هؤلاء رجال أصلحوا لله سرائرهم فأصلح الله علانيتهم ، بلغت بهم عزة الإيمان أن أحدهم كان ينام على الطوى ويقول : نزح بحرين بغربالين وحفر بئرين بإبرتين وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين خير لى أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عينى...

نعم ! كانوا يبيتون على الطوى ويقولون نحن فى سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف . إنما أخذوا تلك الدروس النافعة من أستاذ الإنسانية الأكبر وقائد المسلمين الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم الذى عرضت عليه الدنيا بما فيها من متاع وزخارف وعرضت عليه الجبال نفسها لتكون له ذهبا وفضة فقال قولته الشهيرة : بل أجوع يوما فأذكرك وأشبع يوما فأشكرك ؛.

صلى عليك الله يا علم الهدى وصلى الله على آل بيتك الأطهار وأصحابك الأخيار، ومن تبعك بإحسان إلى يوم الدين .

نماذج من أفذاذ النساء

كما عرضنا فيما مضى نماذج لأبطال الرجال فإننا يشرفنا كثيرا أن نعرض لبعض المسلمات اللائى نهلن من المناهل العذب المورودة من النبع الصافى وضربن المثل الأعلى فى الشجاعة والصبر والإقدام والحكمة .

❂ من هؤلاء النساء الخنساء :

وما أدراك ماهى ؟ حظها من الرفعة حظها ومكانتها فى الإسلام مكانتها . ولندع التاريخ يحدثنا عنها : جاء فى كتاب الاستيعاب لابن عبد البر ماملخصه : حضرت الخنساء حرب القادسيه ومعها بنوها أربعة رجال فجمعتهم ليله المعركة وقالت لهم : يابنى إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين وإنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحده ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم. وذكرتهم بأيات الوعد وبجزيل الثواب للصابرين فى مواطن القتال . وقالت لهم : فإن أصبحتم غدا - إن شاء الله - سالمين ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، فإذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها فتيمموا وطيسها تظفروا بالخلد والكرامة فى دار الخلد والمقامة .

فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم وباشروا القتال حتى قتلوا كلهم فلما بلغ الخبر الخنساء أمهم قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

✪ أسماء بنت أبى بكر :

إنها مثال آخر من حياة النساء الصحابيات المناضلات والمجاهدات أذكره ليكون فيه عبره لنساء قادتنا وزعمائنا . كانت أسماء من أوائل من أسلم وقد رشحها أبوها أبو بكر لأخطر الأعمال خلال هجرته فى صحبة الرسول صلى عليه وسلم ألى المدينة سرا. فقد كان لها دور هام فيها فكانت تحمل الزاد والماء للرسول وصاحبه أثناء اختفائهما فى الغار، وتنقل لهما أسرار وتطورات موقف زعماء قريش الذين كانوا يبحثون عنهما ليقتلوهما . وجاء هؤلاء الزعماء إلى أسماء مرة بعد خروج أبيها مع النبى مهاجرا وسألوها عن أبيها فقالت : لاأدرى فلطمها أبو جهل لطمة أطارت قرطها فاحتملت هذا الأذى فى سبيل الله .

وقد سجل التاريخ موقفها الرهيب الذى لا يعرف له مثيل فى حياة الأمهات ، ذلك لما دخل عليها ابنها عبد الله بن الزبير خلال ثورته على الأمويين فى الحجاز الذين أرسلوا أليه الحجاج بجيش كبير لقتاله فدخل على أمه أسماء وقد انفض عنه أنصاره بعد قتال مرير طويل فقال لها مستشيرا: يا أماه خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة . والقوم – أى الأمويون – يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟

قالت أمة أسماء : أنت والله يابنى أعلم بنفسك : إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك .. وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك . وإنت قلت : كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين ! وكم خلدوك فى الدنيا ؟ القتل أحسن والله لضربة

بالسيف فى عز أحب إلى من ضربه بسوط فى ذل ! .

قال لها : يا إماه إنى أخاف إن قتلونى أن يمثلوا بى .

قالت له فى إيمان صادق وعزم نادر : يابنى إن الشاة لايضيرها سلخها بعد الموت !

وخرج عبد الله مشحونا بنور الإيمان وصدق العزيمة اللذين استمدهما من أمه فقاتل حتى قتل فى يومه وماتت أمه بعده بأيام .

هكذا . فلتكن الأمهات مدرسة وقدوه لتخريج أجيالا مؤمنة برسالاتها تعمل بجد ويقين وإخلاص وتسعى لرضاء الله فى كل أعمالها حتى الموت .

❂ نموذج آخر للمرأة المسلمة :

نموذج يعمل فى صمت وإخلاص تأدبت فى المدرسة المحمدية وصار هذا التأدب هو نهج حياتها :

عن أنس رضى الله عنه قال : اشتكى ابن لأبى طلحة فمات . وأبو طلحه خارج البيت ولم يعلم بموته . فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئا ونحته فى جانب البيت . فلما جاء أبو طلحه قال : كيف الغلام ؟ قالت قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد أستراح . ثم قربت له العشاء ، ووطأت الفراش . فلما أصبح اغتسل . فلما أراد أن يخرج أعلمته بموت الغلام فصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم أخبره بما كان منها . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لعله يبارك لكما فى ليلتكما . فجاءهما تسعة أولاد كلهم قرأوا القرآن .

هؤلاء هم الذين صدقوا الله وعده فأدوا ما عليهم لأنهم علموا أن هذه الدنيا ماهى إلا مقدمة لعالم البقاء فآثروا الآجل على العاجل وصدق فيهم قول الله تعالى : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا »

وقال فيهم جل شأنه : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

محمد : الذي جعل من العبيد سادة (١)

هذه حقيقة ثابتة لا يجادل فيها إلا مكابر ، ولا يمارس فى مضمونها إلا كل معتمد أثيم (يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها) .

وأولى بالذين يحاولون أن يجعلوا من مسألة الرق شبهة يثيرون غبارها على جلال الإسلام وجماله ، أولى بهم أن يرددوا هذه الحقيقة إذا أرادوا الإنصاف وطلبوا وجه الحق .. أولى بهم أن يقولوا إن محمدا هو الذى جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين موجهين وقادة .

لقد كان مولده الشريف إيذانا بأنه محرر العبيد .. فقد كانت أول رضعة ، وأول جرعه لبن نزلت جوفه الشريف من جاريه لعمه أبى لهب تسمى « ثويبة » .. وكان من حسن الطالع وبشير اليمن أن هذه الجارية عندما ذهبت وأخبرت أبالهب بمولد السيد الجليل محمد صلى الله عليه وسلم فرح بهذا الخبر فرحا عظيما ، وكانت مكافأته : عتقها ، فصارت بسبب هذه البشرى الكريمة حرة تنشق نسيم الحياة الكريمة .. وكان مولده الشريف إيذانا وإعلاما بأن هذا المولود سيجعل من العبيد سادة ومن المستضعفين مفكرين وقادة .

وها نحن أولاء ننتقل بالحديث عن جارية أخرى .. إنها السيدة الجليلة « بركة الحبشية » المكنية « بأم أيمن » :

كانت أمة مملوكة للسيدة آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لها سيدنا محمد صلوات ربى وسلامه عليه بعد موت أمه :

أنت أمى بعد أمى .. وقد أسلمت بعدما دخلت السيدة خديجة - رضى الله عنها - فى الإسلام .. إذ أن خديجة كانت أول من أمن بالنبى صلى الله عليه وسلم من النساء ، وأقامت « أم أيمن » بمكة تحتمل أذى المشركين ، إلى أن جاءت الهجرة إلى المدينة ، فخرجت من مكة ماشية إليها ، وليس معها ماء تشربه ولا زاد تأكل منه ، وكان عندها قوة عجيبة على احتمال العطش والجوع ، حتى أنها كانت تصوم فى اليوم الحار ثم تطوف فى الشمس كى تعطش فلا يصيبها عطش !

أما جهادها فى الإسلام فقد كانت تقوم بسقى الجيش ، وتداوى الجرحى فى القتال . ومما حضرته من الغزوات : غزوة أحد ، وخيبر ، وكانتا من أهم غزوات النبى صلى الله عليه وسلم . هذا بالإضافة إلى أنها كانت من أكثر نساء المهاجرين حظا فى الشهداء من رجالهن : فقد تزوجت بعبيد بن زيد ، وأنجبت منه أيمن ، الذى مات شهيدا « يوم حنين » وبعد موت « عبيد » تزوجت بزيد بن حارثة ، وأنجبت منه أسامه بن ريد ، وقد مات زيد شهيدا فى « مؤته » فصبرت على فقد زوجها « زيد » وابنها « أيمن » وكان « أسامة » غلاما ، فعكفت على تربيته والعنايه به ، حتى جعلت منه رجلا يقود جيشا فيه من الأبطال مثل أبى بكر وعمر ، وكان آخر جيش أعده النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن « أسامة » قد جاوز العشرين سنة .

ولما مات النبى صلى الله عليه وسلم كانت « أم أيمن » تبكيه كلما ذكرته ، ولا ينقطع بكاؤها عليه ، وقد قال أبو بكر لعمر : انطلق بنا لنزور أم أيمن كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها ، فلما دخلا عليها بكت ، فقالا لها : مايبكيك فما عند الله خير لرسوله ؟ فقالت :

أبكى لأن وحى السماء قد أنقطع ! فهيجتهما على البكاء ، فجعلت تبكى ويبكيان معها .

وليس هناك أسمى من هذه النفس التى تبكى انقطاع الوحى ، وتحزن بفقد الاتصال بالسماء فهى لا ترى إلا السعاده الروحية التى تصل بيننا وبين الملأ الأعلى ، وتفيض على أهل الأرض فتسموبهم إلى موطنها . وقد ماتت (ام ايمن) بعد عشرين يوما من خلافة عثمان رضى الله عنه سنة ٦٤٣ م ارايت الى هذا الجلال وتلك العظمة فى هذه السيدة التى كانت مملوكة للرسول صلى الله عليه وسلم ، فامتدت يداه الكريمتان فأهداها نعمة الحرية ، وجعل منها السيدة التى تكلم الخليفة أبا بكر ، ووزير عدله عمر كلمه تجعلهما يبكيان ويذرفان الدمع على انقطاع الوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ !

إن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة . ومن تلك النماذج أيضا :

✪ بلال بن رباح :

مؤذن رسول الله (وكفى بالأذان شرفا) :

أليس المؤذن هو الذى يرفع كلمه التوحيد عالية يشنف بها الآذان ، ويملأ بها القلوب عزة وكرامة ؟

كان « بلال » عبدا مملوكا لأمية بن خلف ، ولاقى الأذى فى سبيل عقيدته مالا يقوى عليه أحد غيره ، فوقف من التعذيب والتنكيل موقف

الجبل الأشم ، لا تحركه العواصف ، ولا تؤثر فيه الرياح القواصف .. كان كلما اشتد عليه الأذى ، وتضاعفت أمامه الكروب : ازداد إيمانا على إيمانه . بلغ من قسوة أمية بن خلف أنه كان يطرحه على رمضاء مكة وقت الظهيرة ، حيث الشمس تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، ويسيل منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه . ولا عجب ! فأمية عرفه التاريخ بأنه رجل حديد اللسان ، حديد الوجه ، حديد القلب .. لو وزعت قسوة قلبه على الناس ، ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم .

كلما اشتد الأذى ببلال كان يردد هذا النشيد الخالد : أحد أحد ، فرد صمد ، لا والد ولا ولد ! أجل يا بلال ! إن الله واحد فى ذاته لا شريك له ، واحد فى صفاته لا نظير له .. إنه رب السماء والفضاء والجبال والشجر .. إنه رب عزيز قادر ، له الجبين قد سجد .

ويردد « بلال هذه الكلمات كلما أمره أميه بالكفر ، ويشطاط عدو الله غضبا ، فيقول له ، العبد المؤمن : إن أكن عصيتك فقد أطعت الله ، عذب ماشئت فإنك تعذب جسدى ، أما روحى فلن تنال منها شيئا ! لله درك يا بلال : لقد ضربت المثل الأعلى فى الصمود والثبات على المبدأ الحق ، حتى جعل الله لك من الضيق فرجاً ، وقد تقدم الصديق رضى الله عنه فاشتراك وأعتقك ، وكنت صاحب المكانة المرموقة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عرفت بالصوت الندى فى الأذان حتى قال عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك أندى صوتاً . وكان لك الشرف العظيم أن تعلن الأذان من فوق بيت الله الحرام ، يوم الفتح الأعظم ، حيث اشرأبت الأعناق ، وقال بعض أهل مكة من ذوى النفوس التى ملكها الكبر : ألم

يجد محمد غير هذا ليؤذن ؟ فرد عليهم القرآن الكريم فى صراحة ووضوح وحزم وعزم : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

سرعت بديهته رضى الله عنه : لا ننسى ذكاءك وسرعة بديهتك ، وحضور حجتك ، عندما سألك سائل ، فقال لك يا بلال : ابن من أنت ؟ فقلت على الفور : أنا ابن الذى أسجد الله له الملائكة . صدقت يا بلال ، فرسول الله يؤيدك كل التأييد ، إذ يقول : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

ولا ينكر أحد مكانتك فى قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم : لقد غضب من أبى ذر الغفارى الصحابى الزاهد الورع ، عندما قال لك فى لحظة غضب : يا ابن السوداء . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك امتلأ غضباً وقال فى حدة وشدة : « يا أبا ذر : أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » .

وأخذت هذه الكلمات كل مأخذ ، وكأنها سهام بتارة ، جعلت أبا ذر رضى الله عنه يضع خده على الرمال ويقول : يا بلال طأ على خدى بقدميك .

إنه الأدب والخلق الذى تربى عليه أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه : إذا أخطئوا أو ظلموا أنفسهم ، أو شعروا بانحراف فى النفس : استيقظت لواعج الوجدان ، فذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم .

أبعد كل هذا تجوز المقارنة بين عدالة الإسلام ونزاهته ونظافته وطهارته ، وبين ما يدور فى العالم من شرور التفرقة العنصرية فى أعظم الأمم حضارة فى عصرنا هذا ؟ ! إذا لا تصح المقارنة بين شريعة الله وشريعة الغاب التى وضعها العبد وسولت له نفسه الأمارة بالسوء أن يحكم به عباد الله . وحسبك يا أخى أن تعلم أن الإسلام يبنى عزائم المؤمنين لإقامة الحق والعدل مع الصديق والعدو .. مع الفقير والغنى . إن الإسلام يعد الناس جميعاً متساويين فى الإنسانية ، لأنهم جميعاً صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد . وهذه المساواة العامة الإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب ، وهى فوارق الانحراف البشرى والظلام الإنسانى . فوارق الجاهلية الضالة والهوى المتسلط والتعالى الكاذب والتمييز المصطنع .. وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد الذي جعل العبيد سادة (٢)

قال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » صدق الله العظيم .

الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم ، وغمرها بعدله . والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل من الجمود والتقليد ، وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير ، والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستبعاد ، وجعل منهم سادة أقوياء . وقد عرضنا فى المرة السابقة نماذج لهؤلاء العبيد السادة بإسلامهم وإيمانهم واليوم نستكمل عرض بعض النماذج الأخرى :

✪ زيد بن حارثة :

حب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال فى شأنه : « أنت مولاى ، ومنى ، وأحب القوم إلى » .خرجت أمه « سعدى بنت ثعلبة » معه تزور قومها « بنى معن » ، فأغارت خيل لبنى القيس بن جسر فمروا على أبيات « بنى معن » فاحتملوا زيداً – وقد كان يومئذ غلاماً يافعاً – ولم يعرف أبوه بعد شيئاً عنه . وكان موسم الحج قد أقبل ، فحج قوم من «كلب» وأمام أعينهم دائماً صورة هذا الرجل الباكى « حارثة بن شرحبيل ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا «زيداً» فعرفهم ، وعرفوه ، وأقبل عليهم ، وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به « سوق عكاظ » ،

فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قريش : محمد بن عبد وهبته له وانطلق (الكلبيون) واعلموه اباه ، فخرج (حارثة) واخوه (كعب) بفدائه وقدما مكة فسألا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فدخلا عليه وقالا : يا ابن عبد الله ! يا ابن عبد المطلب ! يا ابن هاشم ! يا ابن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العانى وتطعمون الأسير . جئنا فى ابننا ، فامتن علينا وأحسن إلينا فى فدائه ، فإنا سندفع لك الفداء . فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : « دعوه فخيروه فإن اختاركم ، فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى » .

فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . قال من هما ؟ قال زيد هذا أبى وهذا عمى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما » . فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى بمكانة الأب والأم . فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ !

قال زيد : نعم ! إنى قد رأيت من الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحجر وقال : « يامن حضر ، اشهدوا أن زيداً ابنى : أرثه ويرثنى »

فلما رأى أبوه وعمه ذلك طابت أنفسهما وانصرفا ، ونزلت الرسالة على محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فكان زيد أول من آمن به من

الأرقاء ، ولم يفارق النبى صلوات الله وسلامه عليه لحظة ، فأحبه النبى حباً شديداً . وأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى الهجرة لأصحابه . وهاجر زيد ، ونزل فى المدينة على سعد بن خيثمه ، ولما هاجر الرسول الأعظم إلى « يثرب » وآخى بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء وزيد أخوين فى الله . ثم آخى النبى الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين ، فشهد بدراً وأحدا واستخلفه الرسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة حين خرج إلى « المريسيع » ، وشهد « الخندق » و « الحديبية » و « حنيناً » .

وخرج « زيد » أميراً فى سبع سرايا أولها « القردة » ، فاعترض لعير قريش فأصابها ، وأفلت أبو سفيان منهم وأسر زيد « فرات بن حيان العجلى » وقدم بالعير على النبى الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : « ما بعث رسول الله زيد بن حارثة فى جيش قط ، إلا أمره عليهم ، ولو بقى بعد لاستخلفه » .. وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو الروم ، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين ، وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلاً : « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة » . وتحرك الجيش الإسلامى بقيادة لواء الإسلام « زيد بن حارثة » أليس فى هذا المعنى ما يعطى الدلالة الصادقة على أن رسول الله هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين

أساتذة وقادة ؟ هذا « زيد » يقود جيشاً فيه جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ، الشريف الكريم ، وفيه خالد بن الوليد ، وخالد هو سيف الله المسلول .

ومن بعد زيد : قاد أبنه « أسامة » الحملة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قادها إلى فلسطين ، وكان على رأس جيش فيه أبو بكر الصديق وعمر الخليفة فاروق هذه الأمة .. أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الإسلام الذى كرم البشرية ، وزكى النفوس ، وطهر القلوب !

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

الدين والدنيا لنا جمعتهما ... لك شريعة قدسية غراء
والمسلمون جميعهم جسد ، إذا ... عضو شكى ، سهرت له الأعضاء

سار المسلمون ، وعلى رأسهم زيد ، حتى وصلوا إلى « مؤتة » ، وهناك علموا بتجمع جيوش الروم فى أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلاً . ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدها ؟ ! وتناولته السيوف بالطعن ، وهو يقاتل دون راية رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وأخيراً : استشهد الأمير .

أيتها النفس الكبيرة ! لقد عرف النبى الأعظم حقيقتك ، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة النبوة حيث قال : « زيد ابنى » ، ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .وفى المدينة وقف النبى الله صلى الله عليه وسلم يقول : « استغفروا لزيد :

لقد دخل الجنة وهو يسعى » . ثم أتى أهله ، فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبى صلى الله عليه وسلم حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : يا رسول الله ما هذا ؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « يا سعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب » .

يرحمك الله يا زيد بن حارثة ! يا من أثنى عليك رسول الله خيراً ، ويا من أنعم عليك الله بالإسلام وأنعم رسوله عليك بالعتق .. يا من ختم الله لك حياتك الكريمة بالموتة الكريمة فلقيته شهيداً وعشت فى دار الكرامة فى مقعد صدق عند مليك مقتدر !

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما اتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

حقا إن الوقائع تثبت والتاريخ يؤكد ، والحقائق تقرر أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبدلها بحكمة معروفة فيه .. كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادئ الذى يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، أو كالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .

لقد كانت الصيحة الأولى للإسلام هى تحرير الإنسان من ربقة العبودية وإعلان كرامة الإنسان وتطهيره من ذل الخضوع لشئ أو لأحد غير الله .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله .

داويت متئداً ، وداووا طفرة   وأخف من بعض الدواء : الداء

إن المساواة فى الإسلام تدعو إليها الفطرة العامة ويقضى بها المصير المشترك ، ويتطلبها عدل السلوك وسلام الإنسانية .. قامت فى الإسلام من أول أمره فالناس جميعاً أمام قانون الله سواء لا فرق بين عظيم وحقير ، شريف ووضيع . والنبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه يعلن فى خطبته الجامعة : « أيها الناس : إن ربكم واحد . وإن أباكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى ، كلكم لآدم ، وادم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد وعلى اله ومن اتبع هديه بإحسان إلى يوم الدين .

محمد الذي جعل العبيد سادة (٣)

إن الإسلام العظيم يأبى التفرقة ويحاربها ، فالحق أساس هذا الدين ، والعدل سياجه والناس - مع اختلاف عقائدهم وألوانهم وأجناسهم . أمام عدله وحقه : سواء .

فالتفرقة فى حقيقتها انتكاس بالإنسانية ، وتفويت لأسباب الرفعة الحقيقية التى لا يمكن أبداً أن تتم لعبد يغفل عن حقيقة نفسه ومعرفة خالقه . فالخالق عزّ وجلّ أعلن على لسان رسوله الكريم « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » .

إن هذا التكريم للإنسان وضعه الرسول صلوات الله وسلامه عليه منهجاً تطبيقياً تقتضيه وحدة المبدأ ووحدة المصير فخلق نماذج بشرية تفخر بها الإنسانية على مر العصور والأجيال ، عرضنا منها عدة نماذج فى المقالات السابقة ونعرض هنا نموذج آخر لتلك القمم الشامخة التى انتقلت من مرحلة العبودية إلى مرحلة العزة والكرامة والسيادة بفضل الإسلام ورسول الإسلام الذى أرسله الله رحمة للعالمين .

❂ سلمان الفارسى :

ذلك الرجل الذى بحث عن الحقيقة العليا ، ونخل مخزون فكرة ، وقدح زناد رأيه فى سبيل الوصول إلى الحق ، حتى يهدأ فؤاده وتقر نفسه .

نشأ بين قوم فى بلاد الفرس ، يعبدون النار من دون الله ، وكان

أبوه قد جعله قائماً على شأن النار يغذيها يالوقود إذا ما أوشكت أن تضعف .. ودارت فى نفسه وعقله أفكار وتساؤلات : هل يليق بالإله أن يكون محتاجاً إلى عبادة ؟ وماذا يحدث لو أنه أهمل مده بالوقود ؟ لا بد أن تنطفئ هذه النار .

وأخيراً .. ولى هارباً ، وهاجر من هذه البلاد يسعى وراء الحق ، ويطلب الحقيقة . ونزل على أحد الرهبان ، فدله الراهب على أن الحق فى شريعة محمد خاتم الأنبياء . وولى سلمان وجهه شطر المدينة فى قافلة متوجهة إلى هناك ، لكن أحد اليهود المقيمين بيثرب ادعى أنه قد اشتراه ، فصار « سلمان » عبداً مملوكاً لذلك اليهودى ، يقوم على خدمته ورعاية شئونه .

ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ؛ أسرع سلمان ليختبر فيه الصفات التى أرشده إليها الراهب الذى التقى به فى بلاد الشام ، من أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يقبل الصدقة ، ولكنه يقبل الهدية ، وأن خاتم النبوة دليل واضح على صدق دعواه ،

وتحققت هذه كلها فى رسول الله أمام سلمان ، فأسلم ، وتعاون المسلمون على شرائه من اليهودى ، ثم أعتقوه ، فصار حرا وكل منهم يريد أن ينسبه إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم : « سلمان منا آل البيت » .

وكان لسلمان موقفه التاريخى المجيد « يوم الخندق ، عندما ادلهمت الخطوب ، واشتدت المحن ، وحوصرت المدينة . استشار الرسول أصحابه ، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق . وصادف هذا الرأى قبولاً

مطلقاً فى نفوس المسلمين ، فحفر الخندق ، وكان فى حفره خير ويمن ، لأن الحرب مكيدة وخدعة ، وقد صدق سلمان ما عاهد الله عليه . إننا لا ننسى لسلمان هذا الموقف الإسلامى الجليل ، ولا ننسى له شدة تمسكه وعمق تغلغله فى مفاهيم الإسلام .. قال له سائل : يا سلمان : من أبوك ؟ .. فرد عليه بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أنا ابن الإسلام !

ولما بلغ هذا الخبر أمير المؤنين « عمر » بكى وقال ثلاث مرات : وأنا ابن الإسلام ! أجل يا سلمان :

لعمرك : ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالاً عل النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد حط بالشرك النسيب أبو لهب

كان سلمان رجلا مجداً فى حياته ، لا يعرف الكسل .. كان يكتسب لقمة عيشه بكد يمينه وعرق جبينه كان يأتى « بخوص » النخيل فيصنع منه المكاتل ويبيعها ، ويقسم الربح أقساماً ثلاثة : قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين ، وقسم ينفق منه على أهله ونفسه ، وقسم يعمل فيه فى التجارة !

ولقد صدق فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يرضى لرضى سلمان ويغضب لغضبه ، وإن الجنة لتشتاق إلى سلمان أكثر من اشتياقه إليها » .

رحمك الله يا سلمان ، جزاك عن الإسلام خيراً ، يا من قال عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سلمان منا ، آل البيت » . هنيئاً لك ، ثم هنيئاً لك بهذا الشرف الذى رفعك إليه سيد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه .

۞ وخلاصة القول :

هذه نماذج كريمة لقوم جعل منهم الإسلام سادة وقادة . لقد حاول الملأ من قريش أن يصرفوا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء المستضعفين ، وقالوا له بلسان الكبرياء والصلف : إن أردتنا أن نؤمن بك ، فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ! والله يشهد إنهم لكاذبون ، وأن قلوبهم قدران عليها الجبروت والعناد .

فماذا كان جواب الإسلام على افترائهم ؟

لقد أنزل الله قوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين » .

ورد الله أيضاً على هؤلاء المتكبرين بقوله عزّ وجلّ :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » .

بل لقد كرمهم القرآن الكريم تكريماً دونه كل تكريم حيث قال تعالى : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ، فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » .

وكان سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إذا لقيهم يقول : « مرحبا بمن أوصانى ربى بهم خيراً » ويبسط لهم رداءه ، ويخفض لهم جناحه .

أبعد كل هذا تجوز المقارنة بين عدالة الإسلام ونزاهته ونظافته وطهارته ، وبين ما يدور فى العالم من شرور التفرقة العنصرية فى أعظم الأمم حضارة فى عصرنا هذا ؟ ! إذ لا تصح المقارنة بين شريعة الله وشريعة الغاب التى وضعها العبد ، وسولت له نفسه الأمارة بالسوء أن يحكم بها عباد الله .. شتان ، ثم شتان بين عدل الخالق جل شأنه وبين ظلم المخلوق .

وحسبك يا أخى أن تعلم أن الاسلام يبنى عزائم المؤمنين لإقامة الحق والعدل مع الصديق والعدو .. مع الفقير والغنى « يا أيها الذين آمنو ا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ولا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » . فالحق أساس هذا الدين ، والعدل سياجه ، والناس – مع اختلاف عقائدهم وألوانهم وأجناسهم – أمام عدله وحقه سواء .

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعز به وكن عفيفاً ، وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، ذلك الرسول الذى بعثته بقولك الحق « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » .

اليوم الحق (١)

« ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا »

صدق الله العظيم

۞من مشاهد يوم القيامة :

قال تعالى وهو أصدق القائلين : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم · يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » .

فى هذا المشهد القرآنى ينادى الله تعالى على البشرية آمرا إياهم بالتقوى تجنبا لعذاب يوم شديد تتزلزل فيه القلوب والأبصار من هول ما ترى وتسمع ·

وقد فسر الإمام على كرم الله وجهه التقوى : بأنها الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ·

لقد وقف رضى الله عنه بين المقابر ذات يوم فقال : « السلام عليكم يا أهل المقابر أنتم السابقون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون · أنتم فرطنا إلى الجنة ونحن لكم تبع ونسأل الله لنا ولكم العافية· يا أهل القبور أما أموالكم فقد قسمت ، وأما بيوتكم فقد سكنت ، وأما نساؤكم فقد تزوجن غيركم· هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ؟ ثم أنصت قليلا والتفت إلى أصحابه وقال : أما والله لو شاء الله لهم أن يتكلموا لقالوا : إن خير الزاد التقوى » ·

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسير مشاهد يوم القيامة أحاديث كثيرة :

- فقد روى الإمام أحمد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أتدرون أى يوم ذاك ؟ ذاك يوم ينادى آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل فيقول : يا آدم ابعث بعثك إلى النار ، فيقول يارب وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار وواحد فى الجنة قال فأبلس أصحابه » . فلما رأى ذلك قال « أبشروا واعملوا فو الذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثر تاه » (يأجوج ومأجوج ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس) .

- وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن حاتم بن أبى صقيرة ، حدثنا ابن أبى مليكه أن القاسم بن محمد أخبره عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلا قالت عائشة : يارسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك » .

- وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن اسحاق ، حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبى عمران عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت : قلت يارسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال « يا عائشة أما عند ثلاث فلا ، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب ، إما يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فيطوى عليهم ويتغيظ عليهم ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة . وكلت بمن ادعى مع الله إلها آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد. قال

فينطوى عليهم ويرميهم فى غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أرق من الشعر وأحد من السيف ، عليه كلاليب وحسك « شوك » يأخذان من شاء الله ، والناس عليه كالبرق وكالطرف وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : يارب سلم ، سلم. فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكور فى النار على وجهه » .

وهكذا فإن معنى قوله تعالى « إن زلزلة الساعة شىء عظيم » أى أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق فظيع ، وحادث هائل وكائن عجيب .

ثم ينقلنا الحق تبارك وتعالى إلى مشهد أخر من مشاهد يوم القيامة فيقول عز من قائل :

- « إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان مالها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خير يره . ومن يعمل مثقال ذره شراً يره » والمراد بزلزال الساعة ما يحدث للنفوس من فزع وكرب شديد. قال جل جلاله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون. لايسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون. لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) .

- ومعنى قوله جل شأنه (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت) أى يشتغل كل حميم عن حميمه . ويفر كل صديق من صديقه . حتى إن الأم تلقى ولدها فتقول له يابنى لقد كان بطنى لك وعاء ، وكان ثديى لك سقاء ، وكان حجرى لك وطاءاً. وانت تعلم مابى ، أمعك حسنة

يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول ابنها : ليتنى يا أماه أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين · ويلقى الوالد ولده فيقول له ولده يا أبت لقد كنت بك براً ، وإليك محسناً ، وعليك مشفقاً ، فهل أجد عندك حسنة يعود علىَّ خيرها اليوم ؟ فيقول له والده : يابنى ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو· وهذا معنى قوله جل شأنه « ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » ·

- وفى قوله تعالى (وتضع كل ذات حمل حملها) معنى بلاغى معجز ، فإن الحامل لا تضع حملها قبل تمام مدته · إلا إذا أصيبت بفزع شديد ، وهلع عنيف · وهل هناك بعد زلزلة الساعة فزع أعنف أو هلع أشد ؟ إنها كناية من ألطف الكنايات وعبارة تتبوأ مكانتها فى أعلى طبقات البلاغة ·

- قال تعالى (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) وذلك لما أصابهم من الدهشة والشرود لهول ما يرون ·

- يوم تكون السماء كالمهل · وتكون الجبال كالعهن · ولا يسأل حميم حميما · يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه · ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه · كلا إنها لظى · نزاعة للشوى · تدعو من أدبر وتولى· وجمع فأوعى ·

ألا يكفى أن يكون هذا المشهد جديرا بأن تذهل المراضع عمن أرضعن ، وأن تضع الحوامل حملهن قبل تمام مدته ، وأن يصير الناس فى سكرة وحيرة ، العقول شاردة ، والألباب فى دهشة ،

والأفئدة قد بلغت الحناجر .

- « فـإذا جـاءت الصـاخـة . يوم يفـر المرء من أخـيـه . وأمـه وأبيـه . وصـاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة » .

إنهم سكارى من شـدة مـا رأوا من خطوب وأهوال ، ومـا هـم بسكارى من شراب تعاطوه أو كئوس مترعة تجرعوها ، ولكن عذاب الله شديد .

- « وجىء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول يا ليتنى قدمت لحياتى . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد . ولا يوثق وثاقه أحد » .

إن هذه الآية الكريمة لو نزلت على جبل لخر لها الجبل هداً . إنها تنخلع من هولها القلوب وتشيب من جلالها الولدان .

- « إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة » .

وهكذا فإن مشاهد يوم القيامة تتوالى تباعا فى القرآن فى إشارات صريحة واضحة تصور أهوال يوم القيامة ، ويكفى أن نعلم أن الذى أخبر عنها هو الله العظيم حيث يصف زلزلتها العظيمة ، وذهول كل مرضعة عما أرضعت رغم أنه لا يوجد هناك صلة أقوى من صلة الأم برضيعها ولا عاطفة ورحمة تفوق عاطفتها نحوه .

هل هناك هول أشد من ذلك الهول الذى يؤدى أن تطرح فيه الأرحام أجنتها وتلفظها من القرار المكين لفظ النوى ؟

وهل هناك تعبير عن الحيرة أقوى من السكرة نتيجة عذاب الله الشديد ، إن فى كلمة العذاب والشدة ما تقف أمامه النفس خاشعة لجلال ربها ، متواضعة لكبريائه . إن كلمة العذاب فى حد نفسها كلمة عصيبة وخطيرة ، فإذا ما أخبر عنها العزيز الجبار بالشدة بلغت أى مكان من الهول والخطب الجسيم .

اللهم إنا نسألك النجاة من النار ونسألك الفوز بالجنة ونعيمها .

فما هو طريق النجاة ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه فى المرة القادمة بعون الله ومشيئته ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

اليوم الحق (٢)

« ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا »
صدق الله العظيم

❁ما النجاة ؟

تكلمنا فى المقال السابق عن مشاهد من أهوال يوم القيامة . واليوم نجيب على السؤال الذى طرحناه آنفا وهو كيف النجاة من تلك المواقف التى تجعل الولدان شيبا ؛ وتنفطر لها القلوب وتنخلع من هولها الأفئدة ؟

ويأتى الجواب على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سأله عقبة بن عامر رضى الله عنه وهو يقول : ما النجاة يارسول الله ؟ قال له : « أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك » أما إمساك اللسان فعن اللغو ، والرفث ، والكلام الفاحش ، وعن كل ماحرم الله من الغيبة والنميمة وشهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وهنا نسأل : فما البديل عن كل هذا ؟ .. ونجد الاجابة فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا : بلى قال : ذكر الله » .

ما أروعك يا رسول الله عندما تتكلم بجوامع الكلم فترفعنا إلى

أعلى درجات البلاغة وما أروع ما قيل فيك :

فما عـــرف البـــلاغة ذو بيـــان   إذا لـــم يتـــخذك له كـتابـــــاً

كلمة موجزة ، أجاب بها الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا العرض العظيم من الخيرات والأجر والدرجة والفضل هذه الكلمة هى ذكر الله . ومعنى الذكر استحضار عظمة الله تعالى فى قلب المؤمن « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب ».

نعم تطمئن لرحمته ومغفرته وعطفه . فذكر الله دواء وشفاء . وذكر الناس أسقام وداء .. وهل طابت الدنيا إلا بذكره ؟ وهل طابت الآخرة إلا بعفوه ؟ وهل طابت الجنة إلا برؤيته ؟

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

وجلت قلوبهم تعظيما لمهابة الله ، وتوقيرا لجلاله وكماله وجماله . فالذكر فى القلب طمأنينة لرحمته وعفوه . وهو أيضا خوف وإجلال لعظمته ومهابته ، فإذا ما أمسك الإنسان لسانه عن اللغو فإنه يشغل بذكر الله . والذكر كما قالوا على سبعة أنحاء : ذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

فإذا ما وسع الإنسان بيته فقد أصبح بعيدا عن مواطن الشبهة ومجالس الريبة وأماكن الفسق . ومن وضع نفسه موضع الريبة والشبهة فلا يلومن من أساء الظن به .. إذا ما وسع الإنسان بيته كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم في إرشاده « وليسعك بيتك » فإنه يكون فى بيته كالمصباح المضىء بين أولاده بعيدا عن كل ما يلهى ويشغل ، ويصبح بيته من البيوت التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه .

وتأتى الفقرة الثالثة « وابك على خطيئتك » : وهل يبكى الإنسان على خطيئته إلا إذا كان قلبه مليئا بخير وتوبة ؟ وهل يصل الإنسان إلى هذه الدرجة إلا إذا استحضر عظمة الله فى قلبه :

(والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) .

إذن فمدار الأمر كله ، وطريق النجاة يدور حول ذكر الله ويرتكز عليه ، فهو قطب الرحى ، ومناط الاستنباط ، وحجر الزاوية ، ومحور الارتكاز ومركز الدائرة . ومن ثم فإنه لا بأس أن نسجل هنا حشدا من فوائد الذكر التى نص عليها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه :

– عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما . قالا : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : « ما من قوم يذكرون الله . إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده » (أخرجه مسلم فى كتاب الذكر) (والترمذى فى كتاب الدعاء) .

- عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الرب تبارك وتعالى : « من شغله قراءة القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » . (أخرجه الترمذى).

- عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله وعليه وسلم قال : « يقول الرب يوم القيامة : سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم ، فقيل : ومن أهل الكرم يارسول الله ؟ قال : أهل مجالس الذكر في المساجد » (رواه الإمام أحمد وأبو يعلى والبيهقى وابن حبان فى صحيحه) .

- عن معاوية رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج علي حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده ، فقال : أتانى جبريل وأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة . (أخرجه مسلم).

- عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله إلا ناداهم مناد من السماء : قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات » . (أخرجه أحمد).

- وعن ثابت قال : كان سلمان في عصابة (جماعة) يذكرون الله ، فمر النبى صلى الله عليه وسلم فكفوا فقال : ماكنتم تقولون ؟ قلنا نذكر الله . قال : إنى رأيت الرحمة تنزل فأحببت أن أشارككم فيها . ثم قال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت « أن أصبر نفسى

معهم » . (أخرجه الإمام أحمد والحاكم وصححه) .

فوائد الذكر كما ذكرها العلامة ابن القيم : قال رضى الله عنه فى فوائد الذكر : وفى الذكر أكثر من مائة فائدة :

الأولـــى : أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

الثانيــة : أنه يرضى الرحمن عز وجل .

الثالثــة : أنه يزيل الهم والغم عن القلب .

الرابعــة : أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .

الخامسة : أنه ينور الوجه والقلب .

السادسة : أنه يقوى القلب والبدن .

السابعــة : أنه يجلب الرزق .

الثامنــة : أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة .

التاسعــة : أنه يورث المحبة التى هى روح الإسلام وقطب رحى الدين ، ومدار السعادة والنجاة ، وقد جعل الله لكل شىء سببا ، وجعل سبب المحبة دوام الذكر ، فمن أراد أن ينال محبة الله تعالى فليلهج بذكره ، فالذكر باب المحبة وشعارها الأعظم وصراطها الأقوم .

العاشرة : أنه يورث المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان ، فيعبد الله كأنه يراه ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .

الحادية عشرة : أنه يورث الإنابة ، وهى الرجوع إلى الله عز وجل ، فمن أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه فى كل أحواله ، فيبقى الله عز وجل مفزعه وملجأه وملاذه ومعاذه . وقبلة قلبه ، ومهربه عند النوازل والبلايا .

الثانية عشرة : أنه يورث القرب منه ، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه وعلى قدر غفلته يكون بعده .

الثالثة عشرة : أنه يفتح له بابا عظيما من أبواب المعرفة ، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة .

وإلى حديث قادم إن شاء الله نستكمل فيه فوائد الذكر للنجاة من أهوال يوم القيامة ندعو الله أن يوفقنا إلى محبته ورضاه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

اليوم الحق (٣)

« ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا »

صدق الله العظيم

❁ البعث حق :

« يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ٠ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير٠ وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » ٠

لما ذكر الله تعالى أن هناك فريقا من الناس يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، عقب ذلك بذكر الأدلة علي البعث بعد الموت حتى يقطع الجدال الذى تلوكه ألسنة المكابرين الجاحدين فقال (يا أيها الناس) وهذا نداء للبشرية جمعاء ٠ (إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب)٠ ثم بعد ذكر هذه الآية الواضحة البينة ذكر خمس نتائج أنتجتها الآية :

الأولى : ذلك بأن الله هو الحق ٠

الثانية : وأنه يحيى الموتى ٠

الثالثة : وأنه على كل شيء قدير ٠

الرابعـــة : وأن الساعة آتية لاريب فيها ٠

الخامسة : وأن الله يبعث من فى القبور ٠

۞ أدلة البعث :

من يقرأ آية البعث يجدها قد اشتملت على نموذجين من الأدلة :

الأول : قياس الإعادة على البدء وذلك فى قوله تعالى (فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا) ٠

الثانى : قياس البعث على نبات الأرض فإن بين الإنسان وبين النبات صلة قوية ٠ قال تعالى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) ٠

وصفوة القول أن الله الذى بلغت قدرته شأواً لا حدود له ، والذى خلق الإنسان من العدم ، قادر علي أن يعيده بعد أن تتفرق أجزاؤه ويفنى جسده وهذا قياس الأولى أى قياس الأدنى على الأعلى ٠ فالذى أوجد من العدم قادر بالأولى على أن يعيد بعد الإيجاد ٠

ثم إذا انتقلنا إلى النموذج الثانى من الأدلة وهو القياس على النبات ، وجدنا أن الأرض الميتة الهامدة الساكنة سرعان ما ينزل عليها الماء فتحيا بالنبات وما النبات والإنسان إلا كائنات حية تشترك فى صفات كثيرة وأطوار عدة ٠

۞ أدلة أخرى :

وقد حشد القرآن الكريم آيات بينات لهذه المعركة التى دارت رحاها بين العقيدة المؤمنة والأخرى الجاحدة ، وكلها تدور حول قضية البعث ، وهذه الأدلة آيات ناطقات بعظمة الله ، وجلال إبداعه فى كونه ، وبعد حشد الأدلة يذكر البعث ويقرره . من ذلك قوله تعالى فى سورة الرعد : (المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا . ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشى الليل والنهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

بعد حشد هذه الأدلة البينة يعرض القرآن لقضية البعث فيقول (وان تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد . أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

وكأنى بالقرآن الكريم يلقى باللائمة علي هؤلاء الذين اتضحت أمامهم الأدلة المنصوبة فى عالم السماء والأرض كيف يسألون هذا السؤال العجيب وهم يعلمون علم اليقين أن الآيات على قدرة الله تحيط بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم كيف يسألون

هذا السؤال وهم يعتقدون أن الذى أخبر بالبعث بعد الموت هو الذى نصب الآيات فى الآفاق والأنفس ؟ .

ومن هنا فقد حكم على هؤلاء الجاحدين بثلاثة أشياء : (أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

نعم إن إنكار البعث كفر بالله لأنه تكذيب بأخبار الله فى القرآن . واستمع إلي قول هذا الرجل الذى قص القرآن قصته مع صاحبه وهو يحاوره ، والذى جاء فى سورة الكهف (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه . قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا) .

فماذا قال له صاحبه ردا على قوله (وما أظن الساعة قائمة) ؟

« قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا » .

فحكم عليه بالكفر لإنكاره البعث « لكن هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا » .

إن لنا فى آيات سورة الرعد عجبا عندما نتأملها ونتأمل القدرة الفائقة . عندئذ لا يمكن أن يكون للشك سبيل فى قلوب ذوى البصائر :

« الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » ٠

لقد صدقت ياسيدى يارسول الله عندما نصحت أبا ذر رضى الله عنه قائلا : « جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير وخفف الحمل فإن العقبة كئود » ولا يسعنا بعد تلك النصيحة إلا أن نعى بقلوبنا وعقولنا تلك الكلمات النورانية التى أنزلها الله لنا فى قرآنه الكريم تنبيها وتحذيرا من اليوم الحق حيث قال جل شأنه : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ٠ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ٠ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ٠ أصحاب الجنة هم الفائزون » ٠

فاللهم إنا نسألك ونتوجه اليك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا وجلاء همنا وذهاب حزننا ، وأن تقرب بيننا وبين الجنة وتباعد بيننا وبين النار وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ٠ وصلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

اليوم الحق (٤)

« ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا »

صدق الله العظيم

❂ البعث حق :

إن قضية البعث في القرآن جاءت مقترنة بتوحيد الله والإيمان به من ذلك قوله تبارك وتعالى (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) وقوله جل شأنه : (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) .. إلى غير ذلك من الآيات .

ولأهمية البعث نرى أن الله تبارك وتعالى يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالقسم فى ثلاثة مواضع. وكلها فى البعث :

- قال تعالى : (ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين) .

- ويقول تعالى :(وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) .

- وقال جل جلاله : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئون بما عملتم وذلك على الله يسير) .

من هنا نعلم أن الله تبارك وتعالى أكد هذه القضية توكيدا لا يحتمل أى لبس ولا غموض . إن الله جل جلاله ينبه أصحاب الأذهان الغافلة والقلوب الجاحدة إلى ماردده المنكرون من قبل فيقـــــــــول :

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) .

❂ القرآن والبعث :

وإذا كان القرآن الكريم قد تناول هذه القضية فى أعلى طبقات البلاغة والقوة ، فإنه يعرض للبعث فى أساليب غاية فى الجلال والجمال والعظمة. وقد عرضنا مشهدا

- فى سورة الرعد حيث قدم القرآن الأدلة القاطعة على قدرة الله فى العالم العلوى والأرضى ، ثم عقب على ذلك بقضية البعث ، وألقى باللائمة علي منكريها وجاحديها .

قال تعالى : (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراب أئنا لفى خلق جديد) .

- وفى سورة ق يعرض القرآن للقضية ، ثم بعد ذلك يقيم الأدلة على القدرة الفائقة التى لا يقف أمامها شىء . قال سبحانه : (ق والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب. أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) .

يرد القرآن علي هذه الدعوة ردا حاسما فيقول تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج) .

ثم يقيم الأدلة الباهرة فيقول سبحانه (أفلم ينظرون إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج • والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج • تبصرة وذكرى لكل عبد منيب • ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد • والنخل باسقات لها طلع نضيد • رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) •

فأنت ترى فى هذا المشهد القرآنى من سورة ق كيف سجل القرآن العظيم كلام المنكرين الجاحدين الذين ظنوا أن الرجع والإعادة والإحياء بعد الموت بعيد فأقام القرآن من الأدلة ما يثبت أن الإعادة أهون من البدء ، وأن الإيجاد بعد الفناء أيسر من الخلق من العدم •

(أفلم ينظرون إلي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج)• ثم يسأل القرآن : (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها • رفع سمكها فسواها • وأغطش ليلها وأخرج ضحاها • والأرض بعد ذلك دحاها • أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها) •

ثم يجيب على هذا السؤال فى روعة وجلال (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) •

ثم يبين أن الذين لا يعرفون هذا قوم أصيبوا بعمى القلوب وطمس البصيرة • فيقول سبحانه : (وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون) •

ثم يخلص من هذا إلى نتيجة تقرر أن البعث حق لا ريب فيه ، على الرغم من جحود الجاحدين فيقول جل جلاله : (إن الساعة لآتية لا ريب

فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) . وبعد أن يقيم القرآن أدلة القدرة الفائقة من رفع السماء وبسط الأرض : (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً) .

بعد ذلك يقيس البعث علي هذه الآيات المشاهدة أمام العين التى لا ينكرها عاقل ولا يجحدها من رزق أدنى علم فيقول سبحانه فى كلمة موجزة المبنى عظيمة المعنى وهى (كذلك الخروج) أى الخروج من القبر بعد الموت يوم البعث مثل ذلك . فكما أن الذى سبق ذكره واقع ومشاهد فالبعث مثله ، وكما أنكم لا تنكرون آيات الله فى كونه من سمائه إلى أرضه ، ومن عرشه إلى فرشه ، فإن العدل والمنطق يقتضيان منكم ألا تنكروا البعث بعد الموت ، إذ أن الذى أخبر عنه هو الله المحيي المميت ، المبدىء المعيد ، الضار النافع ، الخافض الرافع ، القابض الباسط ، الواجد الماجد ، الواحد القهار ، الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن العزيز ، الجبار المتكبر ، الخالق البرىء ، المصور العزيز ، الحكم العدل ، الرزاق ذو القوة المتين ، الذى إذا أراد قضى المراد ، إذا حكم فلا معقب لحكمه ، وإذا قضى فلا راد لقضائه .

وفى سورة النبأ وهو البعث ، يصدر القرآن هذه السورة الكريمة بسؤال ثم يجيب عنه ، ويعرض بعد ذلك الأدلة على القدرة الفائقة ، ثم يعقب بالنتيجة كل هذا فى سلك فريد ، وعقد نظيم يأخذ بالألباب ، ويدهش العقول لعظمته . اقرأ قول الله جل جلاله : (عما يتساءلون عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون . كلا سيعلمون . ثم كلا

سيعلمون ۰ ألم نجعل الأرض مهادا ۰ والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا ۰ وجعلنا نومكم سباتا ۰ وجعل الليل لباسا ۰ وجعلنا النهار معاشا ۰ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ۰ وجعلنا سراجا وهاجا ۰ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ۰ لنخرج به حبا ونباتا ۰ وجنات ألفافا) ۰

ثم يخلص إلي النتيجة بعد ذلك فى جلاء ووضوح فيقول سبحانه :
(إن يوم الفصل كان ميقاتا ۰ يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا) ۰

كل هذا يدور فى فلك السورة الكريمة التى تعرض للقضية فى جلاء ووضوح وقوة وحزم (إن يوم الفصل كان ميقاتا) ۰

ويؤكد هذا المعنى فى قوله (إن هؤلاء ليقولون ۰ إن هى الا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ۰ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) ۰

ويرد القرآن علي هذا الإنكار فيقول : (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ۰ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لا عبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ۰ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ۰ يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون ۰ إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم) ۰

أخا الإسلام : هلا أكثرت من الزاد لطول السفر ؟

أرض تدك بالجبال وسماء تنشق وتنفطر ، وجنة تنادى على أحبابها وجحيم تسعر لأعداء الله ۰ فاستعدوا لأهوال القيامة يا أولى العقول والألباب واجعلوا نصب أعينكم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه

كالمستهزىء بربه ، ومن آذى مسلما كان عليه من الذنوب مثل منابت النخل » .

وفي الحديث : « الندم توبة » . وقد سئل الحسن البصرى رضى الله عنه عن التوبة النصوح فقال : هى الفزع بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والترك بالجوارح ، والإضمار على أن لا يعود .

أخا الإسلام :

مافى الحياة بقاء		مافى الحياة ثبوت
نبنى البيوت وحتما		تنهار تلك البيوت
تموت كل البرايا		سبحان من لا يموت

أدعو الله أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(وللحديث بقية) . .

اليوم الحق (٥)

« ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا »

صدق الله العظيم

❁ جدد السفينة فإن البحر عميق :

يحسن بنا ونحن أمام الوعد الحق ، والبعث بعد الموت ، أن نسلك بك أيها القارىء إلى طريق النجاة. فماذا أعددت من زاد ليوم المعاد ؟

صم عن الدنيا ، وأفطر علي الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة. وخير الزاد التقوى ، وما كان عليه سيد الأتقياء محمد صلى الله عليه وسلم من الخلق الكريم والقلب الرحيم. اسمع هذه الوصايا الغوالى ، وإلى تلك النصائح العوالى .

– عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله ، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » .

– عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب فى الله ويبغض فى الله ، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئا » (رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى) .

– وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » . (رواه مسلم) .

- وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » . (رواه البخارى ومسلم وغيرهما) .

- عن أبى مسلم قال : قلت لمعاذ : والله إنى لأحبك لغير دنيا أرجوا أن أصيبها منك ، ولا قرابة بينى وبينك . قال : فلأ شيء ؟ قلت : لله. قال : فجذب حبوتى ثم قال : أبشر إن كنت صادقا ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المتحابون فى الله فى ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله. يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء » .

- قال : ولقيت عبادة بن الصامت فحدثته بحديث معاذ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن ربه تبارك وتعالى : « حقت محبتى على المتحابين فىَّ ، وحقت محبتى على المتناصحين فىَّ ، وحقت محبتى على المتباذلين فىَّ ، هم على منابر من نور ، يغبطهم النبيون والشهداء والصديقون » . (رواه ابن حبان فى صحيحه).

- وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عز

وجل عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله ، فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس ، وألوى بيده إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله أنعتهم لنا ، جلهم لنا - يعنى صفهم لنا - فسر وجه النبى صلى الله عليه وسلم بسؤال الأعرابى وقال : هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا فى الله ، وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسون عليها ، فيجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . (رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن) .

- وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن فى الجنة لعمداً من ياقوت عليها غرف من زبرجد ، لها أبواب مفتحة ، تضىء كما يضىء الكوكب الدرى . قال : قلنا يا رسول الله : من يسكنها ؟ قال : المتحابون فى الله والمتباذلون فى الله والمتلاقون فى الله » . (رواه النجار) .

- وروى عن معاذ بن أنس رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الإيمان ؟ قال : « أن تحب لله ، وتبغض لله ، وتعمل لسانك فى ذكر الله . قال : وماذا يارسول الله ؟ قال : وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ماتكره لنفسك » (رواه احمد) .

- وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : من أعطى لله ، ومنع لله ، وأحب لله وأبغض لله ، وأنكح لله ، فقد استكمل إيمانه " رواه أحمد والترمذى .

– وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أى عرى الإسلام أوثق ؟ قالوا : الصلاة. قال : حسنة وما هى بها. قالوا : صيام رمضان . قال : حسن وما هو به. قالوا : الجهاد. قال : حسن وما هو به . قال : إن أوثق عرى الإيمان أن تحب فى الله ، وتبغض فى الله » (رواه أحمد والبيهقى) .

وعن أنس رضى الله عنه أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « متى الساعة ؟ قال : وما أعددت لها ؟ قال : لا شىء إلا أنى أحب الله ورسوله . قال : أنت مع من أحببت . قال أنس : فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت فأنا أحب النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجوا أن أكون معهم بحبى إياهم » . (رواه البخارى ومسلم) .

– وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « لاتصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى » (رواه ابن حبان فى صحيحه) .

– وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة أحلف عليهن . لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة . ولا يتولى الله عبدا فى الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة ، ولا يحب الرجل

قوما إلا جعله الله معهم » . (الحديث رواه أحمد بإسناد جيد).

❂ ثمرات الحب فى الله :

- يتذوق حلاوة الإيمان فيسرى بجسمه النور المحمدى ويتغذى بلبان الاسلام فيحيا حياة السعداء .

- يحيطه الله برحمته ويقيه عاديات شدائد يوم القيامة .

- يجلب له الأمن والسرور ويعد فى مصاف السبعة الذين يظلهم برضوانه وإحسانه .

- شجرة إيمانه مورقة مزهرة مباركة كاملة .

- دليل على زيادة محبة الله ورسوله .

- برهان القبول وعنوان التوفيق .

- زيادة درجات في الجنة بجوار منازل الأبرار .

- قلوبهم مطمئنة آمنة من الأهوال تتلألأ وجوههم نورا وسرورا .

- عروة الإيمان الوثقى من تمسك بها نجا .

- بشائر الأعمال الصالحة الموصلة إلى قبول الله المشوبة بالإخلاص لله الدالة على الهداية والنجاح .

- يحشر مع الصالحين .

- سلوك حسن وصحبة نافعة وسيرة طيبة ونية صالحة وعيشة سعيدة .

- له نصيب في الخير وسهم فى الأجر .

- يدل على كمال الدين وصفاء السريرة والعمل المتقن وخوف الله ورعاية جانبه واحترام كتابه ، وحب سنة حبيبه صلى الله عليه وسلم .

- لا يتسرب الى من يحب لله الإشراك بالله لأنه يأمن عواقب أعماله ، ويضمن إخلاصه ، ويسلم من شوائب الإلحاد .

اللهم اجعلنا ممن يحبون الله ويبغضون فى الله واجمعنا فى ذلك اليوم الحق مع رسولك الكريم الذى أحببناه وآله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وللحديث بقية .

اليوم الحق (٦)

« ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا »

صدق الله العظيم

❂ **أكثر من الزاد فإن السفر طويل :**

نعم إن السفر طويل ، فصم عن الدنيا ومعاصيها ، وأفطر على الموت ، وأعدد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة . ما أطول السفر ، لأنه فى عالم البرزخ . وما وراء البرزخ ، أعنف من أن يمخر عبابه سباح ماهر . أسمع معى إلى تصوير الحق جل وعلا لهذا اليوم . (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحده فيومئذ وقعت الواقعة . وإنشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية . فأما من أوتى كتابه بيمنه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابية . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ماحسابيه . ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك سلطانيه خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . إنه كان لايؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لايأكله إلا الخاطئون) .

صدقت يارب العزة . وبلغ رسولك .

أخا الإسلام :

أعد قراءة هذا المشهد مرة فإن يصور لك بكل دقة مدى طول السفر ، ويشرح لك بتفصيل ما سوف يجرى علينا ونحن فى عالم البرزخ : أرض تدك بالجبال وسماء تنشق وتنفطر ، وجنة تنادى على أحبابها ، وجحيم تسعر لأعداء الله .

فأستعدوا لأهوال القيامة يا أولى العقول والألباب ، وأنشدوا :

مثل لقلبك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء يمور
قد كورت شمس النهار وضعفت ... حرا على رأس العباد تفور
وإذا الجبال تعلقت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا العشار تعطلت عن أهلها ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحضرت ... وتقول للأملاك أين نسير
فيقال سيروا تشهدون فضائحا ... وعجائبا قد أحضرت وأمور
وإذا الجنين بأمه متعلق ... خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف لهوله ... كيف المقيم على الذنوب دهور

أخا الإسلام :

هلا أكثرت من الزاد لطول السفر ؟ أولم تسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التائب من الذنب كمن لاذنب له ، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه ، ومن آذى مسلما كان عليه من الذنوب مثل منابت النخل » ؟

وقد سئل الحسن البصرى رضى الله عنه عن التوبة النصوح

فقال : هى الفرغ بالقلب والأستغفار باللسان ، والترك بالجوارح ، والإضمار على أن لا يعود .

وسمع سيدنا على ، رضى الله عنه أعرابيا يقول : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، فقال يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة الكذابين . فقال : وما التوبة ؟ قال : إن التوبة يجمعها ستة أشياء : على الماضى من الذنوب الندامة ، وللفرائض الإعادة ، يعنى القضاء ، ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لاتعود ، وأن تذيب نفسك فى طاعة الله كما ربيتها فى معصيته ، وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصى .

والتوبة بصفتها المذكورة هى المنجية لصاحبها من العقاب . يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه ابن عساكر عن أنس : « إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه ، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله تعالى وليس عليه من الله شاهد بذنب » .

ما فى الحياة بقاء ... مافى الحياة ثبوت
نبنى البيوت وحتما ... تنهار تلك البيوت
تموت كل البريا ... سبحان من لا يموت

دخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك حين ولى الخلافة فقال : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمر تم دنياكم وخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . قال : فأخبرنى كيف القدوم على الله ؟ فقال ياأمير المؤمنين ، أما المحسن فيقدم على الله كالغائب يقدم على أهله ، وأما المسئ فيقدم على الله كالعبد الآبق لسيدة ، يأتى مولاه خائفا حزينا .

قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض واجتناب المحارم ، قال : فأى الدعاء أفضل ؟ قال : دعاء الملهوف لمن أحسن إليه . قال : فأى الصدقة أو فى ؟ قال : أن لاتعلم يسراه ما أنفقت يمينه . قال : فأى القول أفضل ؟ قال : كلمة حق عند من يخاف . قال : فأى الناس أعدل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ودل الناس عليها . قال : أى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرته بديناه . قال : عظنى وأوجز . قال : نزه ربك وعظمه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك .

فبكى الأمير . فقال رجل من جلسائه : أبكيت أمير المؤمنين أو أحزنته . فقال : قد أخذ الله الميثاق على الأنبياء لتبيننه للناس ولاتكتمونه . ثم خرج فبعث إليه بحلى فرده وقال : لا أرضاه لكم فكيف آخذه منكم ؟

من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم لزاد يوم القيامة :

- من وصايا رسول الله عليه وسلم ما ورد عن أنس رضى الله عنه قال : أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : « أسبغ الوضوء يزد فى عمرك ، وسلم على من لقيت تكثر حسناتك ، وإذا دخلت على أهل بيتك فسلم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، وارحم الصغير ، ووقر الكبير ، تكن من رفقائى يوم القيامة .

- ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم لأبى زر : « أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كئود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير » .

– ومن وصـايا صلى الله عليه وسلم مـاورد عن أبى ذر رضى الله عنه أيضا قال : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بسبع لم أتركهن ولا أتركهن : أوصانى بحب المساكين والدنو منهم ، وأن أنظر إلى من هو أسفل منى ولا أنظر إلى من هو فوقى ، وأن أصل رحمى ، وأن أدبرت وقطعت ، وأن أستكثر من قول لا إله إلا الله فإنها كنز من كنوز الجنة ، وأن لاأسأل الناس شيئا ، وأن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأن أقول الحق وإن كان مراً » .

– ومن وصاياه ماورد عن أبى هريرة قال : « علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال لاأدعهن حتى أموت : لا أنام إلا على وضوء ، وأن أصوم من كل شهر ثلاث أيام وأن لا أدع صلاة الضحى » .

– ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم قوله لعائشة : « إن أردت اللحوق بى فليكفك من الدينا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلفى ثوبا حتى ترقعيه » .

– ومن وصايا صلى الله عليه وسلم ماروى عن معاذبن جبل . قال : قلت يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار . قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله لا تشرك به شيئا . وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل . ثم تلا . (تتجافى جنوبهم عن المضاجع حتى بلغ « يعلمون ») .

ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يارسول الله قال : رأس الأمر الإسلام ، وعمود الصلاة وذروة سنامه الجهاد .

ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه ، وقال : كف عليك هذا . قلت يارسول الله . وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم - أوقال : على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ » .

إن وصاياه صلى الله عليه وسلم ونصائحه لا تحيط بها الدواوين ولا تستقيها أقلام الكاتبين . أدعو الله أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أخلص العمل فإن الناقد بصير

كتب الإمام الغزالى رضى الله عنه إلى الشيخ أبى الفتح بن سلامة :

قرع سمعى أنك تلتمس منى كلاما وجيزا فى معرض النصح والوعظ . وإنى لست أرى نفسى أهلا له ، فأن الوعظ زكاة نصابها الاتعاظ ، فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟ وقد أوصى الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام : « ياابن مريم عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستح منى » .

وقال بعض العارفين : من علم فليعمل ، ومن جهل فليسأل ، فاليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولاعمل ، والعلم إمام والعمل تابعة ، ومن لم يحسن على الجادة ولا سلك بنفسه سبيل الاستقامة كيف ينصح سواه ويعظ غيره ؟ وإن نصح أو وعظ لا تنفع موعظته ولا تقبل نصيحته . فقلما ينتفع بوعظ الواعظ ، ونصح الناصح إذا لم يكن متصفا بنفسه بالصفات الجيدة المرضية التى ندب الشارع إليها وحض عليها ، فالموعظة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب .

وقد علق الشارع الوعيد الشديد على من أمر بالمعروف ولم يفعله ، أونهى عن المنكر وفعله . ومن صفاته عليه الصلاة والسلام أن كان لا يأمر بشيئ إلا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شيئ إلا كان أول تارك له . قال تعالى : « أتأمرون الناس بأكبر وتنسون أنفسكم ؟) وروى أنها نزلت

فى اليهود كانوا يحضون على الصدقة ويبخلون . وفى الآية وعيد شديد لمن اتصف بصفاتهم وفعل مثل فعلهم ثم إتبعها سبحانه وتعالى بتوبيخ عظيم وتشنيع ذميم فقال (أفلا تعقلون ؟) والمعنى : أفلا تفطنون لقبيح ما ارتبكتم وشنيع ما تعاطيتم ؟ كأنه جعلهم مسلوبى العقول لأن العقل يأبى هذا .

وقال البزار عن أبى برزة إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الذى يعلم الخير للناس وينسى نفسه ، مثل الفتيلة تضيئ على الناس وتحرق نفسها » .

وقال عليه الصلاة والسلام « من أراد أن ينصب نفسه إماما فعليه بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ومؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » .

وقد حكى أن رجلا كان يجلس قريبا من محمد بن واسع ، فسمعه ابن واسع يوما يعظ أصحابه ويوبخهم وهو يقول « مالى أرى القلوب لا تخشع ؟ ومالى أرى العيون لا تدمع ، والجلود لا تقشعر ؟ » .

فقال له ابن واسع : يا عبد الله ما أرى القوم أتو إلا من قبلك إن الذكر إذا خرج من القلب استقر فى القلب .

وقيل لحمدون القصار : ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ قال : لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاه النفوس ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفس وطلب الدنيا ، وقبول الخلق .

⊛ كلمة حق خالدة :

قال الله تعالى : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

ويقول عز من قائل : (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) .

ويقول تبارك اسمه : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبا) .

ويقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اثنان إذا صلحا صلحت الأمة ، وإذا فسدا فسدت الإمة : العلماء والأمراء » .

وها هو ذا التاريخ المجيد ، تاريخ الإسلام الخالد ، يحدثنا عن رجل من رجالات الأمر بالمعروف الذين إذا قالوا فإنما يضعون أرواحهم على أكفهم رخيصة فى أسواق الشهادة وهذا الرجل لم يقف التاريخ على اسمه ولكنه دخل التاريخ من أشرف أبوابه وأوسعها . وما أكثر هؤلاء الجنود المجهولين الذين وقفوا المواقف الجليلة الجديرة بأن تسجل بحروف الذهب على صفحات النور .. ولندع الحقائق تكلمنا ، ولنصغ إلى صوتها فى خشوع وأدب :

روى أن عبد الملك ابن مروان خطب يوما ، فلما انتهى إلى موضوع الوعظ فأحسن كل الإحسان إليه قام رجل من الحاضرين فقال : إنكم أيها الملوك تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون . أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم ؟ أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا فى

فى أنفسكم ؟ أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا فى أنفسنا فأنى ؟ وكيف ؟ وأين المصير من الله ؟ وما الحجة غدا بين يديه ؟ وإن قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصيحتنا ، فكيف ينصح من يغش نفسه وإن قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا الموعظة ممن سمعتموها ، فعلام قلدنا أزمة أمورنا وحكمنا كم فى دمائنا وأموالنا ؟

الصدق فى القول والإخلاص فى العمل :

إذا ذكر اسم سفيان الثورى تدانت المعانى الجليلة والخصال النبيلة إلى ذهن ذاكره . فاسم سفيان مقارن للزهد والورع ، والإخلاص والتقوى والنقاء .أليس هو الرجل الذى ملأ طباق الأرض علما وزهداً ؟ أليس هو القوام الصوام الذى رآه أحدكم فى المنام بعد موته فقال له كيف حالك يا أبا سعيد ، فأنشد سعيد قائلا :

نظرت إلى ربى كفاحا فقال لى   هنيئا رضائى عنك صعنك ياابن سعيد
لقد كنت قوماً إذا أظلم الدجى   بمهجة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته   وزرنى فإنى منك غير بعيد

بماذا حدثنا التاريخ عن هذا الإمام الجليل ؟ وماذا حدث له وهو يخطب المسلمين ذات يوم ؟

استمع يا أخي بأذن قلبك . لقد رووا أن سفيان الثورى رحمه الله ، كان يعظ الناس ويشوقهم إلى الله تعالى ويرغبهم فى ثوابه ويحذرهم من عقابه . وكان الناس يتوافدون عليه . فصعد يوما منبره على عادته ، فلما استقربه الجلوس وأراد أن يتكلم ، رفعت إليه امرأة رقعة ، فلما رآها تغير لونه وبكى بكاء شديدا ثم نزل ولم يتكلم . فسأله أصحابه أن

أن يخبرهم بما فى الرقعة فقال مكتوب فيها :

يا أيها الرجل المـــــــعلم غيــــره
هـــلا لنفسك كان ذا التـــــــــعليم ؟
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى
كيـف يصبـــح به وأنـــت سقـــيم
وبـذاك تصلح بالـرشـــاد عقـــولنا
أبـدأ وأنـت مـن الـرشـــــاد عـديم
فابـدأ بنفســك وانـهها عن غيـها
فـإذا انـتـهت عنـه فأنـــت حكـيـــم
لا تـنــه عــن خلــق وتـأتـى مثله
عـار علـــيك إذا فــــــعلت عظيم

فلما قرأ ذلك بكى بكاء شديدا حتى أغمى عليه ، فلما أفاق ، قالوا له يا سيدى لربه كلامك موزون ، وعرضك مصون تشفى القلوب بوعظك ، وتسلى المخـزون فكيف يؤثر فى قلبك هـذا الكلام ؟ وأنت إمـــام وأى إمـام !! فـبكى وقـال : أنا مـا أصلح أن أتكلم على رؤوس الناس ، فـأنا أعرف بنفسى من غيرى ثم فاضت عيناه واشتغل بوجده وجداه . وما عاد أحد بعد ذلك اليوم يسمعه أو يراه حتى مات رحمه الله .

ولله در القائل فى هذا المعنى :

مواعظ الواعظ لن تقـــــبل حتى يعـــــــــيها قلبه أولا
يا قوم من أظلم من واعـــظ خالف ما قد قـــــاله فى الملا
أظهر للعــــــالم إحسانه وخالف الرحمن لما خـــــلا

يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى اتخذ له شعارا خالدا يقول فيه : رحم الله امرءاً أهدى إلى عيوبى .

صدقت يا فاروق هذه الأمة ، فإن صديقك هو من يصدقك ، لا من يصدقك وإن صديقك هو الذى يبصرك بعينك .

هكذا كانت دعوتهم تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، لأنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . إنها شجرة الإخلاص . وقد أخبر الله تعالى عن جزاء المخلصين فقال : (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً) .

اللهم إنا نعوذ بك من قلب لا يخشع ، وعمل لا يرفع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع فصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

خاتمة نسأل الله حسنها

أحمدك اللهم على حلمك بعد عملك وعلى عفوك بعد قدرتك ، أنت صاحب العزة القائمة والملكة الدائمة . قطرة من فيض جودك تملأ الأرض رياً ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا . شعاع من رضاك يطفئ غضب ملوك أهل الأرض . ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا . العز كل العز فى طاعتك . والذل كل الذل فى مخالفة أمرك . . يقول الفاروق رضى الله عنه : « لقد كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام فإذا ابتغينا العزه فى غيره اذلنا الله » .

يا أخا الأسلام :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا

وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

« فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين هديه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيراً . والحمد لله على ذلك .

المحتويات

حقوق النشر

على مائدة الثقافة الإسلامية

رقم الإيداع ١١٥٧٨ / ١٩٩٥

I . S . B N